

لورنس العرب- ملامح حياة وأسرار أسطورة

لورنس العرب- ملامح حياة وأسرار أسطورة

للكاتب مالكولم براون

عرض ومناقشة كامل يوسف حسين
عن البيان الإماراتية

- ❖ حرب لورنس بدأت في القاهرة عبر صراع الاستراتيجيات والأفكار
- ❖ هكذا اقتحمت قوات فيصل ميناء العقبة من البر
- ❖ لورنس ينهب قبر صلاح الدين الأيوبي فور دخوله إلى دمشق
- ❖ لورنس ينضم إلى «الأربعين حرامياً» في مؤتمر القاهرة
- ❖ مسيرة غامضة في «كلاودز هيل» نحو النهاية
- ❖ مساهمة لورنس في الحرب غير التقليدية تثير اهتمام الخبراء

مقالات أخرى عن لورنس العرب



الإعداد والتنفيذ الإلكتروني

م. أمجد قاسم

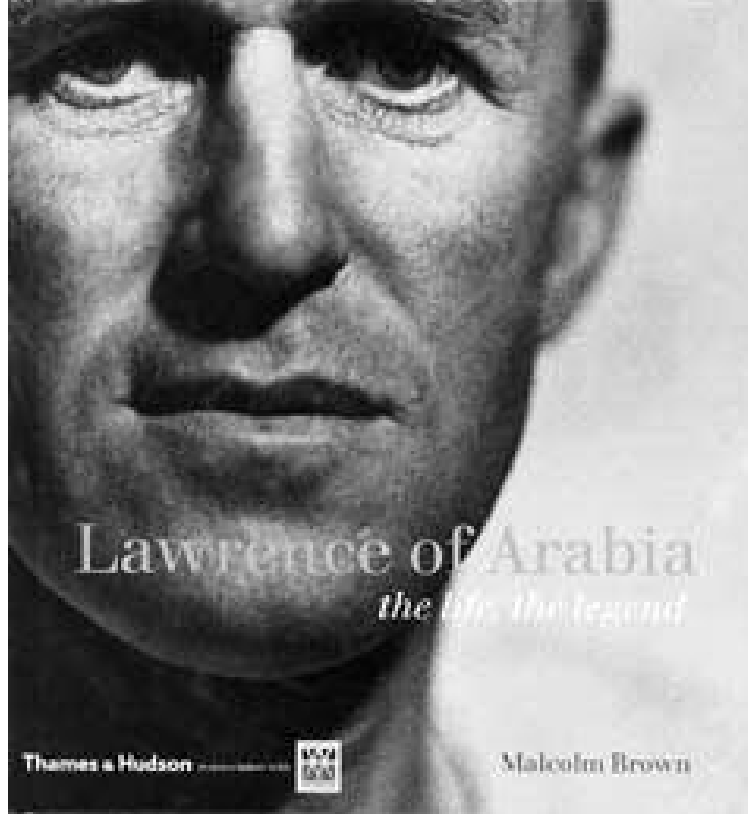
engamjad5@yahoo.com

JOIN AAFAQ GROUP

<http://tech.groups.yahoo.com/group/aafaq/>

لورنس العرب- ملامح حياة وأسرار أسطورة- الحلقة (1)

حرب لورنس بدأت في القاهرة عبر صراع الاستراتيجيات والأفكار



ي يستمد هذا الكتاب أهميته من انطلاقه بعد سبعين عاماً من رحيل توماس إدوارد لورنس، الذي اشتهر تقليدياً بلقب «لورنس العرب» عن عالمنا، وذلك لتقديم المحاولة الأكثر طموحاً حتى الآن للتصدي للأسرار والألغاز وعلامات الاستفهام .

وتشاباتك الضوء والظل التي بقيت تحيّر الناس في حياة هذا المحارب والمغامر والكاتب الذي اقترن اسمه بالثورة العربية الكبرى، وبمحاولة العرب الحصول على الاعتراف الشرعي بحقوقهم على الساحة الدولية في مؤتمر السلام بباريس .

ومن المؤكد أنه ليس من قبيل الصدفة أن تسجل «التايمز» اللندنية الاهتمام الكبير بكتابات لورنس والتي انعكست في قفزة كبرى في توزيع كتابه الكلاسيكي «أعمدة الحكمة السبعة» (في عام 2004، وأن يعود الباحثون للتساؤل عن السر، بل الأسرار الغامضة والملتبسة .

وراء ما يعرف ب«حادث درعا» وتآلق لورنس على ساحة الحرب وفي مؤتمر السلام وفي حرصه المستميت على أن يظل مجهولاً في أدنى رتب سلاح الطيران الملكي، وفيالق الدبابات البريطانية في أواخر حياته، وهو ما يحاول المؤلف التصدي له بالوقائع والوثائق والتحليل المعمق .

من المحقق أن الكثيرين على امتداد العالم قد توقفوا طويلاً عند شخصية لورنس ومجمل أعماله وثرأ كتاباته وأيضاً الثغرات والألغاز التي لا تزال، حتى اليوم، تفرض نفسها على قصة حياته، على الأقل في صياغتها المعروفة لنا .

غير أن هذه الثغرات وتلك الألغاز هي التي دفعت الكاتب مالكولم إلى محاولة التصدي لها، ومن هنا جاء فيلمه الوثائقي الشهير عن لورنس العرب الذي استقطب عشرة ملايين مشاهد في أول عرض له على شاشة ال«بي.بي.سي» البريطانية .

ودفعه إلى الكتابة مطولاً عنه وإلى القيام بالعديد من البحوث عنه عبر سنوات طويلة، بما في ذلك إجراء عدد كبير من المقابلات مع من عرفوا لورنس شخصياً ومع آخرين ممن شاركوا في نسج وقائع قصته التي تتحدى النسيان .

وقد لفت هذا الكتاب الذي يقدمه براون الأنظار بشدة، نظراً لارتفاع سقف طموحه، لأنه يحاول أن يقدم ما يمكن وصفه بالحل الأقرب إلى الدقة لأسرار لورنس، كذلك فقد اقترن إطلاق الكتاب مع الذكرى السبعين لرحيل لورنس عن عالمنا .

ومع المعرض العملاق الذي أقامه متحف الحرب البريطاني والذي ضم العديد من العناصر التي استهدفت التكامل مع الكتاب في إلقاء الضوء على حياة هذا الرجل الغامض، الملتبس، المفعم بالتناقض، الذي استقطب اهتمام الدنيا حتى يوم حادث الدراجة النارية الذي أودى بحياته، والذي كان بمثابة اللغز الأخير في حياة لورنس .

لكن من هو لورنس حقاً؟ كيف انتقل من عالم البحث الأثري إلى دنيا المخابرات؟ ما الذي طوّح به من مكتبه المريح الغارق في الظلال والغموض في دوائر المخابرات الحربية بالقاهرة في مستهل الحرب العالمية الأولى إلى أتون الثورة العربية الكبرى؟ كيف انتقل زميل كلية كل الأرواح الأكاديمي الهادئ ليغدو رجل التفجيرات الكبرى للمعدات والأسلحة التركية في سكة حديد الحجاز؟ .

كيف نجح هذا الرجل المحب للعزلة والانطواء في أن يكون الشخصية الأكثر بروزاً في مجلس فيصل بن الحسين؟ كيف استقطب كل هذه الأضواء لدى دخول دمشق وفي مؤتمر السلام في باريس؟ ما الذي جرى عندما أسره الأتراك في درعا؟ .

لماذا نجح كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» في التحول إلى عمل كلاسيكي إلى الحد الذي يقال إنه لم يخرج من دائرة النشر أبداً منذ صدوره في طبعة محدودة خاصة بالمشاركين حتى اليوم؟ وأخيراً ما السر في حرصه الشديد على الغموض والبعد عن الأضواء إلى حد شغل أدنى المراتب في سلاحي الطيران والدبابات وهو بطل الحرب الشهير؟ .

رجل الحلم والحركة

من المحقق أنه لا سبيل إلى أن نضع يدنا على الحد الأدنى من المعرفة بالمداخل الصحيحة للوصول إلى إجابات معقولة عن هذه الأسئلة، إلا بعد أن نتفهم الحقيقة الأساسية المتعلقة بلورنس، والتي يعبر عنها بطريقته الخاصة .

كان لورنس هو صاحب الكلمة القصيرة المدوية التي قال فيها: «كل الرجال يحلمون..»، ونحن، إذن، حيال رجل حالم منذ البداية، لكنه أيضاً يملك من الطموح والهمة والعزم ما يجعله يسعى إلى جعل حلمه حقيقة ملموسة ومتألقة تحت الشمس .

ومن هنا، جاء توقعه المبكر بأن يبرز وأن يترجم بروزه إلى تكريسه فرداً في طبقة النبلاء البريطانية العتيدة. وبين الحلم وتجسيده تمتد حياة هذا الرجل الذي لا يزال بعد سبعين عاماً من رحيله عن عالمنا يستقطب الاهتمام ويثير النقاش .

قصة الحياة هذه يرويها لنا المؤلف مالكولم براون في ثلاثة أجزاء، هي على التوالي :

- أ - سنوات الأمل والطموح .
- ب - سنوات الانتصار والأزمة .
- ج - سنوات المتاهة .

ويتوج المؤلف هذا كله بما يسميه «المقطع الأخير» والذي يتناول فيه أسطورة لورنس وما تركه للناس وراءه من تراث .

إذا كانت هذه البنية التي تمتد عبر 208 صفحات تعكس توازناً محكماً مثيراً للاهتمام بمختلف مراحل حياة لورنس، وصولاً إلى المرحلة الأسطورية، فمن المحقق أن القارئ العربي للكتاب سيهتم بشكل خاص بالجزء الثاني من الكتاب الذي يدور حول سنوات الانتصار والأزمة .

هذا الاهتمام طبيعي ومنطقي، ولابد لنا من أن نبادر إلى تبنيه، ولكننا قبل أن نطلق مع لورنس في مسيرة الثورة العربية الكبرى لابد لنا من التوقف عند سنوات التكوين التي قدمت لنا هذا الرجل .

أول ما يلفت نظرنا هو أن توماس إدوارد لورنس كان الابن الثاني من بين خمسة أبناء غير شرعيين، ولدوا لأب من أصول أنجلو-أيرلندية من مربية كان قد استعان بها لتربية بناته الأربع .

هذا الأب الذي يدعى توماس روبرت تشابمان كان النتاج التقليدي لأكثر المدارس الخاصة تآلفاً في عصره، مدرسة إيتون العتيدة ما غيرها، وكان وارثاً لبارونية في عمق الريف الواقع إلى الشمال الغربي من العاصمة الأيرلندية دبلن .

ما يعنينا من هذا الأب العجيب هو أنه غادر داره الريفية، المعروفة باسم «ساوث هيل» مع مربية أبنائه وأطفالهما، تاركاً البارونية العتيدة لزوجته، وواصل الانتقال سنوات طويلة في مناطق شتى إلى أن ألقيا عصا الترحال أخيراً في أكسفورد، قلب إنجلترا الشهير، بعد أحد عشر عاماً من التجوال، حيث ضمت العائلة إحدى الضواحي الشرقية للمدينة التي عرفت في أرجاء الدنيا كلها

بكلياتها التي تعود إلى القرون الوسطى .

هذه الخلفية العائلية المضطربة كانت أمراً شديداً الأهمية بالنسبة للورنس، على امتداد حياته، فميلاده غير الشرعي كان عقبة في مجتمع محافظ كالذي نشأ فيه، وكان عليه دوماً أن يبذل جهداً إضافياً، ويقطع شوطاً أبعد، لتجاوز هذا الجرح النفسي، الذي أبقي بعيداً في الظلال، كسراً عائلياً قديماً يتعين نسيانه، ولكن هيهات !

وفي سنوات التكوين لم يكن اسمه مشكلة، فهو بالنسبة للجميع كان الفتى قصير القامة المعروف باسم «ند»، وكان أهم إنجاز له في سنواته المبكرة تلك الانطلاق وحيداً بدراجة هوائية جنوباً إلى فرنسا، وصولاً إلى شواطئ البحر المتوسط، في اختبار صارم لقوته البدنية وتركيبه العضلي الوثيق، ولكن الأمر لم يكن اختباراً عضلياً فقط، وإنما كان محاولة من الفتى لمد يديه بعيداً إلى العالم التقليدي، الذي طالما استقطب ذهنه وجعل خياله يحلق خلال ساعات العكوف الطويلة على القراءة .

تلك نقطة البداية حقاً، هذا الولع بعالم القرون الوسطى وبالعالم التقليدي، وعلى وجه التحديد من خلال تمثله في القلاع، التي كان العديد منها غير بعيد عنه في أكسفورد، والتي حرص على أن يرتاد في فرنسا أبرزها، وخاصة قلعة ريتشارد قلب الأسد في نورماندي .

من هنا لن ندهش عندما ينتقل لورنس من مدرسة أكسفورد الخاصة في عام 1907 للالتحاق بكلية اليسوع العتيقة في أكسفورد لدراسة التاريخ .

ولن نفاجأ عندما نراه يمضي عطلة طويلة في 1909 لإجراء البحوث الميدانية الضرورية في سوريا وفلسطين، لدراسة العمارة الحربية للمنطقة وتاريخ الحملات الصليبية عليها، حيث قطع في ثلاثة أشهر مسافة 1100 ميل، وزار سبعاً وثلاثين قلعة تاريخية، وبلغت نظرنا بشدة أنه قضى معظم هذه الفترة يعيش كعربي في كل شيء، من الزي إلى المأكل والمشرب وطريقة الحياة .

على الرغم من أنه لدى عودته إلى أكسفورد كان نحيلاً، بحيث لم يتعرف عليه أحد، إلا أن حصيلة معارفه كانت كفيلاً بدفعه إلى التفوق إلى حد كبير، وهكذا تلقى التكريم عن تفرقه في صيف 1910، وكان ذلك أمراً حتمياً فقد كان يعرف عن موضوع دراسته أكثر مما يعرف المشرفون على امتحانه، ولا يزال ينظر حتى اليوم إلى أطروحته باعتبارها عملاً رائداً ومهماً، على الرغم من أن ما توصل إليه فيها تم، بالطبع، تجاوزه .

تحت سماء الشرق

كان لورنس قد جعل اسمه معروفاً في متحف أشموليان بأكسفورد، من خلال قيامه بإهداء المتحف عدداً من القطع الأثرية النادرة، التي كان قد عثر عليها هو وزميل له في مناطق تنقيب عن الآثار في أكسفورد، أتاحتها فوره البناء التي اجتاحت المدينة .

وفي عام 1909 قدم له أمين المتحف الجديد دي. جي. هوجارث فرصة لم يكن بإمكانه مقاومتها، فقد بذل هوجارث جهوداً مكثفة ليحصل للورنس، الذي تخرج لتوه، على منحة كبرى في كلية مجدالين، إحدى أكثر كليات جامعة أكسفورد مكانة وتميزاً .

كان الهدف من هذه المنحة دعم لورنس في عمله كمساعد في عمليات التنقيب عن الآثار، التي كان هوجارث مكلفاً بالقيام بها في الشرق الأوسط نيابة عن المتحف البريطاني، وقد كان التنقيب يجري في منطقة كركميش، وهي مدينة من مدن الحثيين على ضفاف نهر دجلة غير بعيدة عن مدينة الحسكة في سوريا، وذلك بعد فترة توقف غير قصيرة .

هكذا غادر لورنس إنجلترا في أوائل ديسمبر 1910 في الطريق إلى الشرق من جديد، وبالإضافة إلى عمله في الفخاريات الأثرية أسند إليه العمل مصوراً للبعثة ومنظماً لقوة العمل المتوافرة لها، وهي مهمة عكف على إنجازها بحماس سيعرف مستقبلاً عن لورنس ليغدو مرتبطاً باسمه .

لكن لورنس لم يعيش منفصلاً عن قوة العمل المحلية في التنقيب، وإنما قسر دور المشرف على هذه القوة الذي أسند إليه بطريقة تجعله واحداً من رجاله، الأمر الذي رفع معنوياتهم كثيراً، كأنما كان يعد نفسه للسنوات التي سيعيشها لاحقاً في المعسكرات والمخيمات العربية، خلال الحرب العالمية الأولى، وأيضاً سنوات العمل في سلاحَي الطيران والدبابات في أواخر حياته .

تلك كانت الفترة التي عكف لورنس فيها على تحسين معرفته باللغة العربية، لا في بنيتها وأساسها الأدبي فحسب، وإنما في عاميتها ولكنتها المحلية كذلك، وأيضاً التمكن من ناحية أساليب الإقناع والتشجيع، التي ستغدو شديدة الأهمية في جولات القتال، التي سيجملها المستقبل في تضاعيفه، واكتساب خاصية الاحتمال في ظروف الشرق العسيرة .

وعلى سبيل المثال، فقد انطلق لورنس في 1911 في رحلة طويلة أخرى بحثاً عن المزيد من القلاع التاريخية والتحديات البدنية، مسجلاً هذه التجربة في يوميات مستفيضة وفي مجموعة كبيرة أخرى من الصور المميزة .

في قابل الأيام، سينتظر لورنس إلى أيام كركميش باعتبارها أسعد أيام حياته، فقد أتيح له وفق تعبيره «الجلوس والتفكير» وهذا اكتشاف ثمين للغاية .»

إذا كانت هناك سحب في حياة لورنس في هذه الفترة، فإنها لن تكون إلا النذر القاتمة المرتبطة باحتمال نشوب الحرب. ولم يكن من قبيل الصدفة أن لورد كتشنر الذي سيصبح وزيراً للحرب في 1914، الذي كان في ذلك الوقت القنصل البريطاني العام في مصر، بادر إلى الإعراب عن مخاوفه بأنه في حالة اندلاع القتال في الشرق الأوسط، فإن تركيا يقيناً ستأخذ جانب أعداء بريطانيا، وقد تبادر إلى تهديد قناة السويس بالخطر، بكل ما تحمله القناة من أهمية لبريطانيا .

نظر كتشنر إلى سيناء باعتبارها منطقة ذات أهمية خاصة من بين الأراضي التي يسيطر عليها الأتراك، فأمر بأن يقوم الكابتن ستيوارت نيوكومب من سلاح المهندسين الملكي البريطاني بعمل مسح عسكري شامل هناك .

لكن هذا المسح كان بحاجة إلى مدنيين ضمن القائمين به، لتخفيف أي شكوك تركية قد تنور حوله، وهكذا تم استدعاء لينونارد وولي ولورنس من كركميش للمشاركة في المهمة، وإضفاء الطابع الأثري - وليس العسكري على أبحاثها .

انطلقت عملية المسح في وقت مبكر من عام 1914، وعلى الرغم من أن جوهرها كان عسكرياً،

كما رأينا، إلا أن ذلك لم يجردها من الاهتمام بالأبحاث المختلفة في تضاعيفها حيث تم تنفيذها برعاية صندوق الاستكشاف الفلسطيني ودعمه .

وطلب من وولي ولورنس أن يكتبوا للصندوق صورة مفصلة عما قاما باكتشافه يمكن إعداده للنشر، وكانا يعكفان على كتابة هذه الوثيقة في إنجلترا في أغسطس 1914 عندما تحولت الحرب من احتمال مؤرق إلى واقع يفرض حضوره الفاجع .

في القاهرة

بدأت حرب لورنس على نحو هادئ، فبينما اندفعت أعداد لا تحصى من البريطانيين إلى مكاتب التطوع، واصل هو وولي بأقصى سرعة ممكنة كتابة تقريرهما عن سيناء .

ولدى اكتمال التقرير، التحق وولي بضباط سلاح المدفعية الملكي، بينما استعان القسم الجغرافي في المخابرات العسكرية بوزارة الحرب في لندن بلورنس، وتم في البداية تشغيله كمدني، وبحلول شهر أكتوبر كان قد أصبح ملازماً ثانياً فيما يعرف بالقائمة الخاصة، أي أنه ضابط غير ملحق على تشكيل عسكري محدد .

سيظل لورنس، من الناحية الرسمية، ضابطاً غير مرتبط بوحدة عسكرية محددة طوال الحرب، لكنه سيترقى على نحو غير مألوف إلى رتبة لفتنانة كولونيل .

شهد إخوة لورنس دروباً أكثر تقليدية من الدرب الذي سلكه، فقد أصبح الأخ الأكبر الذي عرف دائماً باسم «بوب» طبيباً في الفيالق الطبية بالجيش الملكي، وانضم ويل إلى الفيالق الملكية الطائرة، والتحق فرانسك بصفوف المشاة. وخدم الأخوة الثلاثة في ساحة شمال غرب أوروبا التي ستهيمن على الخيال الجماهيري، باعتبارها الرمز المطلق لحرب الاستنزاف الحديثة، أي الجبهة الغربية .

في غضون عام واحد من بداية الحرب، لقي ويل وفرانسك مصرعهما، حيث قتل ويل في الغارات الأولى، وأصيب فرانسك بقذيفة خلال قيادة رجاله استعداداً لهجوم .

وجد لورنس نفسه في الطريق إلى الشرق من جديد، وقبل أن ينتهي العام الأول من الحرب ألفى نفسه في القاهرة، كجزء من كادر تم تجميعه بسرعة من «الحكام والأخيار» حسب التعبير الشهير لاكتشاف ما الذي يعتزم الأتراك القيام به، وذلك بعد أن انضمت تركيا إلى صفوف أعداء بريطانيا في الحرب، كما أجمعت التوقعات البريطانية، وتجاوزت المهمة ذلك إلى التوصل إلى سبل لقطع الطريق على الأتراك للتأثير في موازين الحرب .

لا شك في أن تلك كانت مهمة على جانب كبير من الدقة والحساسية، لكنها كانت كذلك أبعد ما تكون عن خطوط إطلاق النار. وكان لورنس على امتداد سنوات طويلة قد حوّل نفسه إلى دارس جاد للحرب، لكن الحرب على نحو ما بدت له من مكتبه في القاهرة كانت حرباً بالقلم، بالآلة الكاتبة، بالخريطة والجدل حول المائدة، وهو نوع شاحب من الحروب، سيثير ضيق لورنس الشديد في نهاية المطاف .

دامت هذه المرحلة عامين تقريباً، ودفعته إلى أن يكتب ملاحظات من قبيل: «سأبقى في القاهرة

إلى أن أموت» أو «أحسب أن المرء يكون أسعد كثيراً وهو في خندق، حيث لا يقلق بشأن السياسة والمعلومات طوال اليوم.»

ومع ذلك، فقد كان ذهنه يتدفق بالأفكار، التي أدرج أهمها في رسالة كان قد كتبها إلى هوجادث في مارس 1915، ومن المحتم أن أراضي الشرق الأوسط التي يسيطر عليها الأتراك، وبصفة خاصة مناطق القبائل العربية القريبة بشكل مباشر من مصر والسودان كانت ذات أهمية خاصة لجامعي المعلومات الذين مضوا يقدهون زناد أفكارهم في القاهرة .

كان لا بد من فعل شيء ما لكبح جماح القلق السائد في هذه المناطق بما يضعه في خدمة الهدف المركزي للحلفاء، وهو هزيمة الأتراك في الميدان وإجبارهم على الرحيل، وذلك من خلال مساعدة قوة الحملة الهائلة التي كان يجري تجميعها في القاهرة آنذاك للانقضاض على الأتراك .

وقد كتب لورنس يقول في غمار تأمله للحالة المضطربة للحياة السياسية العربية، التي يقوم كل زعيم عربي في إطارها باتباع أهدافه الخاصة على نحو يتناقض مع أهداف الزعماء العرب الآخرين: «أريد أن أجمعهم معاً، وأن أكتسح سوريا عن طريق الحجاز باسم الشريف.»

ونحن جميعاً نعلم أن الشريف المشار إليه في عبارة لورنس هذه ليس الشريف حسين، شريف مكة، الذي سيقوم بعد خمسة عشر شهراً فقط من كتابة هذه العبارة بإطلاق الثورة العربية الكبرى، التي سيتألق اسم لورنس في وهجها .

إذا كانت الأراضي الحجازية هي مهد الثورة، فإن دمشق كانت جزءاً لا يتجزأ من صميم انطلاقها، ولم يكن من قبيل الصدفة أن يرصد البريطانيون بعض الشك فمن منظوره كان الفرنسيون يوشكون أن يكونوا أعداء بقدر ما كان الأتراك أعداء لبريطانيا .

اللعبة الكبرى

كتب لورنس يقول إنه إذا انطلقت الأحداث في الدرب الذي يتصوره «فإن بمقدورنا الاندفاع وصولاً إلى دمشق وحرمان الفرنسيين من كل أمل في سوريا. إنها لعبة كبرى، وهي لعبة جديدة بأن تلعب في نهاية المطاف.»

من الناحية العملية، كان لورنس يرسم في ذهنه سيناريو الأحداث، الذي سيتحقق بدقة مذهلة. وقد أطلق ديفيد جارنيت، الذي أصبح في وقت لاحق محرر أول مجموعة شاملة من رسائل لورنس، على هذه الوثيقة وصف «الوثيقة» الأكثر بروزاً التي قدر للورنس أن يكتبها على الإطلاق. وهي توضح أنه كان بالفعل قد خطط لحملة سيقدر له أن يشنها ليصل بها إلى الختام بعد ثلاث سنوات .

بدأت «اللعبة الكبرى» التي علق لورنس الآمال عليها في يونيو 1916، وذلك حينما ألقى الشريف حسين القفاز في وجه الأتراك، وقد عهد بمهمة تحدي الأتراك إلى أبنائه، علي، عبد الله، فيصل وزيد، الذين انطلقوا إلى الميدان وكل منهم على رأس قوة محدودة بمعايير ذلك العصر .

ويرى المؤلف أنه لا العفوية ولا الحماس من جانب هذه القوات العربية .. وقادتها كانا بمقدورهما أن يعوضا الافتقار إلى إستراتيجية شاملة، ويشير إلى أن الحقيقة القائلة أنه بعد مرور ثلاثة أشهر من اندلاع الثورة لم تكن هناك ثمار ملموسة لها هي التي جلبت لورنس إلى شبه الجزيرة العربية .

مضى لورنس إلى هناك في أكتوبر 1916، وسوف يعود إلى إنجلترا في أكتوبر 1918. وكان هذان العامان هما بالفعل العامان اللذان صنعاه، وجعلنا نتذكره اليوم بعد مرور أكثر من 70 عاماً على رحيله .

لا يتردد مالكولم براون في الإشارة، على الفور، إلى أن هذين العامين كانا هما أيضاً العامان اللذان غرسا بالفعل فيروساً ثقافياً ونفسياً أوشك أن يقضي على لورانس .

شأن الحرب نفسها، فإن هذه الانطلاقة بدأت بصورة غير دراماتيكية، فقد أبحر لورنس نزولاً في البحر الأحمر إلى جدة، مع عدد من مسؤولي الإدارة البريطانية في مصر، على رأسهم رونالد ستورز، حيث وجد نفسه الرجل الثالث في وفد يسعى إلى التواصل إلى طرق لتنشيط الثورة الوليدة. أما الرجل الثاني في هذا الثلاثي البريطاني فلم يكن إلا كولونيل سي. إي. ولسون المقيم البريطاني في جدة .

كان لورنس أقرب إلى مراقب ومدون ملاحظات أكثر منه مشاركاً فعلياً فيما يجري، وذلك على الرغم من أنه ظل قادراً على إدهاش الرجل الذي قدموا للقائه، وهو الابن الثاني لشريف مكة، عبد الله بن الحسين، بمعرفته المفصلة والغزيرة عندما يطلب منه إبداء رأيه أو يبادر بعقوبة إلى طرحه .

بعد أن وصل ستورز ولورنس إلى جدة في 16 أكتوبر أبحرا في 19 أكتوبر إلى رابغ، حيث قابلا علي، أكبر أبناء شريف مكة .

غير أن حياة لورنس العملية ستبدأ حقاً عندما يسمح له ستورز بأن يقابل الابن الثالث لشريف مكة، فيصل، الذي كان يخيم على مبعدة مئات الأميال من الساحل، أي أقرب إلى الأتراك في الموقع بكثير من علي وعبد الله .

وعلى وجه الدقة في وادي الصفرة .

هكذا انطلق لورنس للقاء المجهول في رحلة ستغدو لاحقاً واحدة من مئات غيرها من الرحلات في بحر الرمال الصحراوي الممتد بلا انتهاء، وهي رحلة لم تكن في حد ذاتها بالأمر الهين، حيث تتم بسرعة هائلة ومن دون إتاحة المجال لإفترات استراحة قصيرة .

الآن أصبح يعتمد على نفسه، وانتقل بصورة حرفية بين عشية وضحاها من مساعد محدود الأهمية، رجل مخابرات لا يكاد يكون هناك وجود أو تأثير له إلى موفد لأداء مهمة في غاية الأهمية .

وهي اكتشاف القائد العربي الأكثر احتمالاً لأن يقود الثورة العربية إلى النجاح، فقد كانت السلطات المعنية في القاهرة بحاجة ماسة إلى أن تعرف أي نوع من المساعدة يمكن أن تكون فعالة، وأين ينبغي أن تقدمها لكي يعلو لهيب الثورة العربية الكبرى .

لم يكن المعيار هنا هو المكانة أو الأقدمية أو البروز على الأقران، وإنما كان الاتسام بالطابع العملي والوعد بأن يقدم للساحات قائدها وللمواقع فارسها .

هكذا فإن القائد الذي أعطيت الأولوية له كان فيصل، الابن الثالث لشريف مكة. كان لقاء بالغ الأهمية ذلك الذي ضم فيصل ولورنس في مخيم الأول في وادي الصفرة، ومن هذا اللقاء خرج رجلان سيقدر لهما أن يحتلا مركز ساحة الثورة العربية من الآن فصاعداً، وهناك وجهات نظر عديدة ومتضاربة في هذا الشأن، ولكن ليس من مفارقة الصواب النظر إلى هذين الرجلين باعتبارهما الثنائي الذي سيكفل للهبب الثورة العربية أن يتعالى ليملاً الأفق .

مالكولم براون
عرض ومناقشة كامل يوسف حسين
عن البيان الإماراتية 2006/5/27

لورنس العرب - ملامح حياة وأسرار أسطورة الحلقة (2)

هكذا اقتحمت قوات فيصل ميناء العقبة من البر

يجد القارئ نفسه عند هذا المنعطف من الكتاب على موعد مع متابعة الجانب الذي يمنحه أهميته الحقيقية، وهو الرصد الدقيق لانطلاق مسيرة الثورة العربية الكبرى، مع متابعة خاصة لقوات فيصل بن الحسين وهي تتطلق شمالاً من ينبع إلى الوجه، وصولاً إلى اقتحام العقبة من جهة البر، ضربة لم تكن القوات التركية تتوقعها، أو تحسب لها حساباً .

ومن هنا جاء تأثيرها الكبير. غير أن لورنس، كما يوضح لنا المؤلف، لن يقدر له أن يواصل الانطلاق شمالاً مع قوات فيصل لدخول دمشق في أكتوبر 1918 إلا بعد أن يجتاز ما عرف بحادث درعا، الذي وقع في إطاره في أسر القوات التركية .

ولا يزال ما جرى في إطار هذا الحادث غامضاً وملتبساً وموضع جدل بعيداً عن الحسم حتى اليوم، ربما في انتظار أن تطل من المجهول رسائل أو كتابات أو تقارير أصلية تكفل حسم أمره مرة وللأبد .

بعد لقاء فيصل بن الحسين ولورنس في مخيم الأول في وادي الصغرة، قبلت السلطات البريطانية المعنية الاقتراحات التي تقدم بها لورنس، وبعد أسابيع لم تطل كان يغادر مكتبه العتيد في القاهرة للأبد، حيث عين رسمياً مستشاراً لفيصل في الحجاز .

بناء على طلب فيصل، تخلى لورنس سريعاً عن زيه الكاكي البريطاني، ليرتدي الملابس العربية التقليدية، ومن الواضح أن ذلك يرجع إلى أن فيصل لم يكن يرغب في أن يبدو ضابط بريطاني بزيه الحربي الأوروبي .

وهو ينتقل في أرجاء معسكره، وبدوره فإن لورنس، الذي كان معتاداً على ارتداء الزي العربي في الشام، قبل سعيداً بارتداء الزي نفسه بصورة دائمة في الحجاز، وكتب في هذا الشأن يقول أن الملابس العربية «أنظف وأيسر في الصحراء»، مشيراً إلى أنها تتيح المجال للشعور بالراحة والتميز الفردي، على نحو لا سبيل إلى تحقيقه من خلال الزي الرسمي الأوروبي .

على أي حال فإن لورنس لم يكن من المتألقين أو المتأقنين في الزي الأوروبي الحربي الموحد، بل إن بعض كبار الضباط الذين خدموا معه كانوا يشعرون في أعماقهم بحافز قوي يوشك أن يدفعهم إلى إصدار أمر له بتلميع أزرار سترته العسكرية وتقصير شعره وتعلم أداء التحية العسكرية كما ينبغي أن تؤدي، بدلاً من الإيماء لهم برأسه وقد دس يديه في جيبي سرواله .

أضفت الملابس العربية التقليدية تحولاً كبيراً على لورنس، فهي من ناحية أخفت قصر قامته، ومن ناحية أخرى قدمت إطاراً يبرز قوة بنيته وتأثيره عينيه الناقدتين، الأمر الذي ساعده على تحقيق حضور قوي وأسلوب مميز لم يؤثر في منتقديه القدامى فحسب، وإنما اجتذب رفاقه الجدد في السلاح .

الرجل والدور

ظاهرياً على الأقل، لم يهتم لورنس بتغيير ملبسه ولا باختلاف المشهد من حوله، فلم يكن هناك مؤشر في الأفق بعد إلى أنه على موعد مع القدر. وفي وقت لاحق سيقول انه قد تم إرساله إلى شبه الجزيرة العربية «ضد إرادتي إلى حد كبير.»

ولكنه هو نفسه سيكتب في ديسمبر 1916 إلى الضابط المسؤول عن المكتب العربي «وهو جهاز المخابرات حديث الإنشاء آنذاك والمكرس للثورة العربية الكبرى، الذي تم إلحاقه به يقول إنه يرغب «في التخلي عن العادات البريطانية والانطلاق مع فيصل بعض الوقت»، مضيفاً انه يجد نفسه أمام «مهمة طريفة وبلد جديد تماماً». أما البلد فهو جديد بالنسبة له، ولكن المهمة، كما لا بد انه قد استشعر في قرارة نفسه، كانت أبعد ما تكون عن الطرافة.

من المهم تحديد معالم الدور الذي سيقوم به لورنس في الحملات التي أعقبت ذلك، فالبعض لا يتزد في الإشارة إليه في أعقاب الحرب على أنه الرجل الذي قاد العرب إلى النصر، ولكن إلى أي حد يمكن أن يكون هذا التوصيف متسماً بالدقة؟

في وقت لاحق، سيناقد لورنس نفسه، في مراسلات مع مفكرين عسكريين، من أمثال ليدل هارت، دوره بمفاهيم القيادة العسكرية، لكن هذا كان بصورة جوهرية بمثابة إشارة إلى مسألة الاستراتيجية والتكتيك، وليس إلى القيادة الفعلية ذاتها.

وإذا أردنا الوصول إلى تحليل لافت للنظر حقاً لدور لورنس في الحرب، فلن يكون هناك ما هو أفضل من التعليق الذي قاله واحد من هؤلاء الضباط النظاميين الذين استنكروا مظهره في البداية، ولكنه سرعان ما أعجبوا بمقدرته وحكمته ولمسته الخاصة في التعامل مع أبناء القبائل العربية، وهو كولونيل بيرس جويس.

على الرغم من ان جويس كان أرفع رتبة من لورنس، فقد أدرك من خلال اجتماع حاشد ضم لورنس مع عدد من قادة القبائل العربية، انه رجل له حضوره القوي والمؤثر بلا حدود، ومن هنا جاء تقدير الكولونيل المخضرم للكابتن الشاب.

كتب جويس يقول انه في مثل هذه الاجتماعات والمؤتمرات: «نادراً ما كان لورنس يتحدث، بل كان يكتفي بالتمعن في الرجال من حوله، وعندما ينتهي الجدل، كما هو الحال غالباً، بالتدخين، فإنه عندئذ يفرض خطته للعمل والحركة، التي كان يجري تبنيتها غالباً، ويمضي الجميع منصرفين وهم راضون.

ولم يكن من خلال قيادته الفردية لجموع من البدو، كما يفترض غالباً، ان تم تحقيق النجاح في مغامراته الجريئة، وإنما تحقق هذا النجاح من خلال اختياره الحكيم لقادة القبائل وتقديمه الدافع المناسب في صورة مكافآت ذهبية على العمل المتقن.»

يلفت مالكولم براون نظرنا إلى ما يصفه بأنه عنصر مهم في القصة، فالزعماء قد يقاتلون من أجل تحقيق أهداف سياسية، لكن المقاتلين النظاميين من أمثال أبناء القبائل الذين شكلوا القوة الدافعة للثورة فليدهم خبز صغارهم الذي يقض مضجعهم وقد فهم لورنس ذلك واستوعبه تماماً.

وقد كتب لورنس، في هذا الصدد، إلى صديقه ومستشاره الأدبي إدوارد غارنيت في 1927 يقول :
«عندما يقوم مقاتل عربي بإنجاز فردي ومتميز خلال الحرب كنت استدعيه، وافتح حقيبة من
العملات الذهبية، وأقول: امدد يدك !»

وقد ساد الاعتقاد بأن تلك هي قمة الروعة، غير أن ذلك لم يتجاوز قط 120 جنيهًا استرلينيًا،
ولكن القيام بمد أصابعك ودفنها في الذهب يعطي شعوراً أفضل بكثير من العد البارد بمئتي جنيه
أو ثلاثمئة.»

حرب مختلفة

من منظور براون، فإن هدية لورنس الحقيقية للثورة العربية كانت في حقيقة الأمر متمثلة في
إنكار القيادة تقريباً، وبتعبير آخر فقد توصل إلى خطة استراتيجية شاملة، تقوم على مفهوم
الحرب بلا معركة، أي تجنب الاشتباك مع العدو وجهاً لوجه .

وبالتالي عدم وقوع الأعداد الكبيرة من الخسائر التي تسقط في الحرب العادية، وهي الخسائر
التي كان لورنس يرى أنها غير ضرورية .

كان لورنس يرى أن التفوق على العدو في الدماء أكثر أهمية من قتله، وهكذا فليست هناك حكمة
في مواجهة جيش من قبيل جيش الإمبراطورية العثمانية، بقوته النارية الأكثر تفوقاً ورجاله
المدربين، حيث أن من شأن ذلك أن يؤدي في يسر إلى إيقاع مذبحه في صفوف قوة غير نظامية
تحاول شن هجوم بالمواجهة عليه، وبالتالي فلا بد من التوجه إلى عتاد العدو، وليس إلى رجاله .

لهذا، بالضبط، كتب لورنس يقول: «إن موت جسر أو سكة حديدية تركيبين أو مدفع أو شحنة من
المتفجرات أكثر نفعاً بالنسبة لنا من موت تركي.»

في غمار هذا كله، كان لورنس يؤسس على نقطة قوة عارمة لدى البدو، وهي أسلوبهم الطبيعي
في خوض غمار القتال. ولكن الرغبة في تجنب سفك الدماء كانت وراء تشديده الدائم على ذلك .

لقد أضاف لورنس إلى ثقافة الحرب السائدة في عصره، والتي اشتهرت بأنها تؤدي إلى تساقط
أعداد هائلة من الضحايا وقوائم ممتدة بهم، على نحو ما يظهر في الجبهة الغربية - مفهوماً أطلق
عليه اسم «دوائر الحزن» وهي الدوائر التي يتسع نطاقها انطلاقاً من أي فرد يسقط في قبضة
موت بلا ضرورة .

ومن الواضح انه لن يكون قادراً على الدوام على التمسك بهذه القواعد، فمن المحتم أن يسقط
ضحايا في حرب بهذه الضراوة، وفي بعض الأحيان يكون ذلك على نطاق كبير، وستكون له
لحظات مما يسميه براون بشهوة الدم .

ولكن لا بد من ملاحظة انه في قلب زمان كان ينظر إلى حياة البشر مدنيين كانوا أو عسكريين
على أنها جديرة بالاعتناء، نهضت فلسفته التي تم التعبير عنها بهدوء لتكون صرخة احتجاج في
برية حرب حضارية .

الطريق الطويل إلى الشمال

لم يكن الارتباط بين فيصل ولورنس راجعاً إلى التقارب بين شخصيتي الرجلين فحسب، وإنما كانت تربطهما طموحات متماثلة فيما يتعلق بالمزيد من التطوير للثورة العربية والانطلاق بها قدماً .

كانت دمشق جزءاً أساسياً من خطة لورنس، كما حدد ملامحها في خطاب إلى هوجارث يعود إلى عام 1915، وكان فيصل يرى الرأي عينه .

هكذا كانت قوة الدفع للحملة بأسرها مع بداية عام 1917 كامنة في الانطلاق من الحجاز شمالاً إلى سوريا، التي كانت دمشق عاصمتها .

يقول براون انه بقدر ما كان لورنس يرغب في انتصار إلى الجانب الذي ينتمي إليه، بقدر ما أراد أن يقدم العرب أداء جيداً في الميدان يتيح لهم المطالبة بالحرية، حيث كان يهتم بمصير العرب في عالم ما بعد الحرب، أكثر مما كان يهتم بالبريطانيين، فهو لاء قادر على العناية بنفسهم، أما العرب فهم بحاجة إلى كل الاهتمام والتشجيع اللذين يمكنهم الحصول عليهما، حسب تعبير مالكولم براون .

هنا من حق القارئ العربي أن يتوقف ليتأمل معادلة لورنس الضمنية، الكامنة في هذه الإشارة، فعلى العرب أن يسفكوا دمهم في الميدان، وجائزتهم الكبرى هي أن يكون من حقهم المطالبة بالحرية، فيما بعد، في مؤتمر السلام .

وهو يعرف جيداً أن هذه المطالبة يمكن في يسر أن تتحول إلى صرخة في واد، ومن هنا الحديث عن مراكمة المساعدة والتشجيع للعرب، لأن ما سيواجهونه في مؤتمر السلام قد يكون فاجعاً حقاً، وهو ما حدث بالفعل، كما نعلم. كأن الرجل كان يطل في الغيب، أو قل كأن الرجل أجاد قراءة نوايا صانعي القرار البريطاني .

أياً كان الأمر، دعنا نتابع ما جرى في الميدان، فقد بقيت قوة فيصل بعض الوقت في ينبع، حيث أمضى لورنس معها بعض الوقت، ثم انطلقت في يناير 1917 شمالاً لتضع يدها على ميناء آخر من موانئ البحر الأحمر، هو ميناء الوجه .

لم يكن الوجه مدينة مفتوحة، تتدلى كثرة ناضجة تنتظر القطاف، وإنما مدينة تضم حامية تركية صغيرة ولكنها مهمة، ويعتد بها. وتم التخطيط لشن هجوم منسق من جانب قوات فيصل والبحرية الملكية البريطانية، لكن قوات فيصل تحركت على نحو أبطأ مما كان متوقعاً، ووصلت لتجد الميناء وقد تمت السيطرة عليه .

وقد نشب قتال قصير لكنه محتدم تاركاً وراءه عشرين قتيلاً وقائد طائرة بحرية بريطانية مصاباً بجرح قاتل، مني به خلال رحلة استطلاع جوي .

استبد الغضب بلورنس، حيث كان يرى أن حصاراً قصيراً يستغرق بضعة أيام على مدينة الوجه من شأنه أن يأتي بالنتيجة نفسها، من دون سفك للدماء أو تحطيم لمرافق المدينة .

كان اجتياز الوجه وانتزاعها من أيدي الأتراك مكسباً كبيراً، حيث أعطى للعرب قاعدة قوية للهجوم منها على سكة حديد الحجاز، والبرهنة على أن فيصل هو قائد الساحة حقاً، وقد أقبل إلى معسكره زعيم قبائل الحويطات المخضرم الشيخ عودة أبو طايح، الذي بدأ للورنس مقاتلاً يحمل هالة القرون الوسطى الرومانسية، وارتبط في خياله على التو بسيفجريد، كما قدمه فاجنر لعشاق موسيقاه .

كتب لورنس عن شيخ قبائل الحويطات يقول: «إنه ينظر إلى الحياة باعتبارها ملحمة، كل الأحداث فيها مهمة، وكل الشخصيات على امتدادها بطولية، وذهنه حافل وتتدفق منه بصفة عامة قصص الغارات القديمة وقصائد المعارك الملحمية .»

أقبل عودة أبو طايح إلى معسكر فيصل لأنه شيخ مشايخ قبائل تمتد مضاربها إلى الشمال، وقد أراد أن يكتشف لماذا تمهل الثورة العربية في الانطلاق تجاه القبائل التي يقودها. وشكل نفاذ صبره وطاقته المتوثبة العنصرين البارزين اللذين ألهماه الخطوة التالية والتي يدور الجدل حول أنها الأكثر دراماتيكية في الثورة العربية بأسرها، أي الانطلاق للاستيلاء على العقبة .

في العقبة

تقع العقبة عند الطرف الشمالي للبحر الأحمر، وكانت بها حامية تركية، تقضي كل أعراف الحرب المعمول بها بالهجوم عليها من البحر ومن الجنوب. وكانت خطة الاستيلاء عليها برأ قد نوقشت في دوائر رفيعة في القاهرة في صيف 1916، ولكن صرف النظر عن ذلك لأنه يحمل مخاطرة بالغة بالنسبة لأي قوات تقليدية .

الآن، وبدعم من قبائل الحويطات بدا هذا المخطط ممكن التنفيذ، وقد دار نقاش جدي حول من الذي جاء بهذه الفكرة البسيطة على نحو متألق، وتقول إحدى مدارس الفكر إن مثل هذه الخطوة تعد مبادرة طبيعية بالنسبة للعرب، غير أن مدرسة أخرى تقول إن الفكرة تعود إلى لورنس في جوهرها الصحيح. وأياً كان أصلها فإنها تظل ضربة عبقرية .

من الطبيعي أنه لم يكن بالإمكان شن مثل هذا الهجوم بين عشية وضحاها، فالأمر لا بد أن يستغرق وقتاً والكثير من الإقناع الحريص والحذر، لكي يتم تجنيد رجال من قبائل تقع مضاربها أقرب إلى مواقع المدفعية التركية، لكي يدعموا مبادرة على مثل هذا القدر من الجرأة، تحت قيادة الشريف ناصر شريف المدينة، الذي ضم مجلس حربه الشيخ عودة أبو طايح ولورنس ضمن آخرين، انطلقت قوة عربية من الوجه، في إطار من السرية والتكتم الشديدين، متجهة إلى الصحراء في مسيرة تأخذ شكل قوس واسع .

لكي تصل إلى العقبة من جانب البر الداخلي. كانت تلك عملية تحظى ببساطة كلاسيكية، وستكون هي نفسها الخطة التي سيعتمدها اليابانيون في الانقراض على سنغافورة بنجاح كبير في الحرب العالمية الثانية .

في السادس من يوليو، وصلت القوة العربية إلى هدفها. وكان الاستيلاء على العقبة، الذي ظل بحسب تعبير لورنس «على امتداد شهور .. أفق أذهاننا، الهدف» قد وصل - عن جدارة - بأنه نقطة تحول الثورة العربية .

اندفع لورنس، في رحلة قدر لها أن تشتهر عالمياً، إلى مصر ليكون أول من يحمل الأخبار السارة

وهناك التقى شخصية محورية أخرى في القصة، أي الجنرال إدوارد اللنبي، الذي كان قد وصل إلى مصر لتوه قادماً من فرنسا، ليقبض بيد أقوى على ما أصبح يعرف بجبهة فلسطين، حيث كانت محاولتان سابقتان للإطباق على الأتراك قد منيتا بالفشل، مما أنهى الحياة العملية للقائد العام البريطاني السابق وفتح المجال أمام اللنبي، الذي سيصبح راعياً للورنس في هذه المرحلة من حياته، كما كان هو جارث راعياً له في مرحلة سابقة .

أتاح الاستيلاء على العقبة للمقاتلين الذين يندرجون تحت قيادة فيصل الفرصة للتعاون مع القوة الضاربة، المنطلقة من مصر إلى الشام لتغيير ملامح خارطة الشرق الأوسط. ومنذ لحظة اللقاء في القاهرة أصبح لورنس ضابط الاتصال الرئيسي بين قادة الثورة العربية والفرنسي .

وعلى الرغم مما درج عليه البعض من محاولة التقليل من أهمية دور المقاتلين العرب في اكتساح الأتراك، مقارنة بدور القوات التي قادها اللنبي، إلا أن براون لا يملك إلا الإقرار بأن العرب قد خرجوا من الحرب بإنجاز فعلي حقيقي وبقامة مرفوعة عالية بما يكفل وضعهم على الساحة الدولية إلى الأبد، فقد قاتلوا كأفضل ما يستطيعون، وبفضلهم تعطل الدور الاستراتيجي لسكة حديد الحجاز التي كانت يمكن أن تتيح للأتراك الصمود طويلاً .

وقد خاطب هذا الإنجاز الدول المحبة للسكك الحديدية وفي مقدمتها بريطانيا، على الرغم من أن قادة هذه الأخيرة - كما نعلم - كانت لهم أجندتهم الخاصة .

حادث درعا

لن يقدر للورنس أن يعرف لحظة الانتصار الكبير بدخول دمشق في الأول من أكتوبر 1918. قبل إن يمر بما يصفه براون بأكثر لحظات الحرب سواداً بالنسبة له، وهي اللحظة التي تشمل ما يعرف بحادثة درعا في نوفمبر 1917 .

لكن ما هي هذه الحادثة بالضبط؟ لماذا يكتنفها كل هذا القدر من الغموض؟ لماذا يحجم لورنس نفسه عن الحديث - أو الكتابة - عنها بأقل قدر من الوضوح؟ .

ربما كتب عن هذه الحادثة المفردة أكثر مما كتب عن أي مفصل من مفصلات حياة لورنس، ولا يزال المزيد عنها يكتب حتى اليوم .

يشير مالكولم براون في حديثه عن حادث درعا إلى أن لورنس وقع في الأسر في يد الأتراك، في إطار هذه الحادثة، حيث قام أسروه من الأتراك بضربه بوحشية، وأخضعوه للاغتصاب .

قيل في روايات كثيرة إن هذا الجانب الأخير ليس إلا محض خيال، ولكن الإشارات إليه تعد أكثر من أن تتم تنحيته باعتباره مجرد خيال، أو تعبير أدبي عن واقع التعذيب .

أيًا كان الأمر، فإن حادثة درعا قد تركته إلى حد كبير رجلاً آخر غير الذي كان، وستترك بصمتها بقوة عليه حتى آخر يوم في عمره، وربما تكون وراء ميله الشهير لاحقاً إلى أن يحيا بعيداً عن الأضواء، وأن يدخل في صدامات لانهاية لها مع رجال الصحافة ومصوريها .

لكن ما الذي يقوله لورنس نفسه عن حادث درعا ؟

واقع الأمر أنه قد أشار في مواضع عديدة من كتاباته ورسائله على السواء إلى حادث درعا، لكنه في كل هذه الإشارات حرص على أن يبقى الحادث في ضوء كاب، خفيض، جهم، يستر أكثر مما يكشف .

كتب لورنس في مارس 1923 يقول عن تجربته في درعا: «لا ينبغي أن أتحدث معك عن تلك الليلة، لأن الرجال المهذبين لا يتحدثون عن مثل هذه الأمور .

خوفاً من التعرض للإيذاء، أو بالأحرى لاكتساب خمس دقائق لالتقاط الأنفاس من ألم دفعني إلى الجنون، تخليت عن المقتنى الوحيد الذي نولد إلى الدنيا به، وهو تكامل جسمنا. إنه أمر لا يغتفر، وضع لا يتدارك، وذلك هو الذي جعلني أتخلى عن العيش المترف وممارسة مواهبي وإعمال قدراتي الذهنية التي لا تعد مما يزدري .»

هكذا فإن من الجلي أن القارئ، حتى وإن أعاد قراءة هذه الفقرة عدة مرات، فإنه لن يخرج منها بأكثر مما منحته في المرة الأولى، لأنها كتبت على هذا النحو عمداً، لتظل تفاصيلها سابعة في الغموض .

هذا الإطار الذهني الذي صاغ فيه الكاتب ما أراد أن يقوله سوف نصطدم به في حديث لورنس عن حادثة درعا في كتاب «أعمدة الحكمة السبعة .»

يقول لورنس إن تلك الليلة في درعا قد تركته: «مشوهاً، ناقصاً، نصف ذاتي فحسب. لم يكن مرد ذلك إلى التلوين، فلم يقدر لأحد أن يضع الجسم في موضع التكريم أقل مما وضعته أنا .

ربما كان الأمر راجعاً إلى تحطيم الروح بفعل ذلك الألم الممزق للأعصاب، الذي تدنى بي إلى مستوى حيواني، عندما جعلني أنحط إلى مستواه، والذي رحل معي منذ ذلك الحين، افتتاناً ورعباً ونزوعاً مرضياً . ربما، ولكنه يشبه اندفاع الفراشة إلى لهيبها .»

إذا كانت تلك إحدى النقاط التي لا تزال أقرب إلى الثقوب السوداء في سيرة لورنس وحياته، ويرى العديد من الباحثين أنها ستظل على غموضها ذلك ما لم تظهر رسائل أو وثائق أخرى تلقي ضوءاً مختلفاً عليها، فإن حياة لورنس تتضمن العديد من المحطات التي تستحق التوقف عندها، والتي انطلاقاً منها ستطلق أسطوره عالياً إلى الذاكرة، كما حلقت تلك الفراشة التي تحدث عن اندفاعها نحو اللهب .

الواقع أن هذه المرحلة من مسيرة الثورة العربية لم تكن لقاء مع النصر فحسب، وإنما كانت أيضاً لقاء مع الأزمة بالنسبة للورنس. مرد ذلك إلى أن لورنس كان يعرف منذ وقت طويل بأمر الخطط التي أعدها الحلفاء لإعادة رسم خارطة الشرق الأوسط بعد الحرب، وأن هذه الخطط لا تقسح لحلم العرب بالحرية السياسية إلا مجالاً بالغ الضيق للتحقيق .

كان لورنس يعلق آمالاً على أن العرب بقدر ما يرتفعون بمستوى أدائهم في الحرب وإنجازهم خلالها، سيكون اقترابهم من حلمهم السياسي، ولكنه عندما سئل من جانب القادة العرب البارزين عن نوايا بلاده حيالهم بعد الحرب .

وجد نفسه مضطراً للجوء إلى المراوغة، وراح يؤكد أفضل التعهدات التي كانت قد تسربت من القاهرة ويقلل من أهمية أسوأ المخاوف التي ساورت العرب .

وقد حدثت مواجهات بينه وبين بعض الشخصيات العربية البارزة، في هذا الشأن على وجه التحديد .

وما كان يمكن للمشهد إلا أن يكون مدلهما بعد نشر نص وعد بلفور في نوفمبر 1917. الذي نص على أن حكومة بريطانيا تنظر بعين العطف إلى المشروع الصهيوني في فلسطين .

بادرت السلطات المعنية إلى تكليف لورنس بالتأكد من أن «الموقف العربي سيكون متعاطفاً طوال فترة الحرب على الأقل» وكان ذلك عبئاً ثقيلاً على رجل واقع تحت ضغط مستمر، إلى حد أنه حاول في أوائل 1918 التخلي عن دوره في الصحراء، لكنه أعيد إليها على وجه السرعة، لأنه لا سبيل إلى الاستغناء عن جهوده هناك، وهكذا اضطر، كما عبر أحد كتاب سيرة حياته، إلى «استئناف الإمساك بصولجان الخديعة في الشرق .»

لورنس العرب- ملامح حياة وأسرار أسطورة - الحلقة (3)

لورنس ينهب قبر صلاح الدين الأيوبي فور دخوله إلى دمشق

ت تصل مشاركة لورنس فيما عرف بحملة العامين إلى ذروتها مع دخوله إلى القدس أولاً، ثم مع وصوله إلى دمشق في أكتوبر 1918، غير أنه لن يقدر له البقاء في هذه الأخيرة إلا ثلاثة أيام، سيحصل في أعقابها على إذن خاص من النبي بالعودة إلى الوطن .

وهو يشير في هذا الصدد إلى أن يناهض الحركة قد جفت بداخله، وهو تعبير يبدو لنا شديد الغرابة من رجل بقي في ذاكرة العالم منطلقاً على متن راحلته وبمعيته دوى الانفجارات. غير أن رجل الحركة لن تنتهي مواقفنا معه هنا، وإنما يتعين علينا أن نتابعه، لنجده في لندن يدلي بشهادته أمام اللجنة الشرقية التابعة لوزارة الحرب .

وعلى الفور سيتبين لنا أن ما يقوله في واد وأن تصورات اللجنة في واد آخر، فقد كانت بريطانيا عاكفة على إعادة تشكيل خارطة الشرق الأوسط، ولم يكن للعرب فيها - بحسب الرؤية البريطانية - إلا هامش بالغ الانحسار .

شهد توماس إدوارد لورنس دخول النبي إلى القدس في ديسمبر 1917 حيث لا يزال من الممكن رؤيته بقامته القصيرة وزيه العسكري، الذي يبدو واضحاً أنه ارتداه على عجل، في خلفية الصور الرسمية الملتقطة بهذه المناسبة والأشرطة الإخبارية التي تتناول هذا المنعطف في الحرب العالمية الأولى .

ولما كان قد درس الحروب الصليبية، وتعمق في معرفة تاريخ المنطقة، فإن من الطبيعي أن يبدو له دخول القدس أمراً شديداً الأهمية، ولسوف نراه في وقت لاحق يصفه بأنه «اللحظة الفارقة في الحرب» .

وفي القدس أيضاً التقى لورنس بالصحافي الأميركي لويل توماس، الذي كان يزور الشرق الأوسط، بحثاً عن تقارير عن الحرب ترفع المعنويات في صفوف الحلفاء، حيث بدا له أنه ليس هناك الكثير من هذه النوعية من التقارير في الجبهة الغربية، التي بدت له عقيمة بكل ما يسودها من موت مجاني ودمار هائل مجرد من المعنى والمبرر .

بفضل جهود سير رونالد ستورز، الذي كان في ذلك الوقت قد عين حاكماً عسكرياً للقدس، تم التعارف بين لورنس وتوماس، وامتدت اللقاءات بينهما في القدس .

ميلاد أسطورة

لا يتردد الكثير من كتاب سيرة لورنس ومؤرخي هذه المرحلة في الإشارة إلى أنه في هذه اللقاءات التي تمت في القدس غرست بذور أسطورة لورنس العرب، ذلك أن لويل توماس سيكون بالفعل هو الرجل الذي سيحول جندياً وأثارياً مجهولاً - حتى ذلك الوقت - إلى الرجل الذي ستعرفه الدنيا باسم «لورنس العرب» .

أياً كان الأمر، فإن المؤرخين يشيرون إلى أن الخطط المكثفة التي كانت قد أعدت 1918 قد تعرضت للتأخير بصورة خطيرة، وذلك بفضل الهجمات الهائلة، التي شنّها الألمان في الشهور الأولى من ذلك العام بهدف الوصول إلى حسم الموقف على الجبهة الغربية، حيث تم استدعاء الكثيرين من أفضل عناصر قوات النبي للقتال في فرنسا، كعناصر دعم وإسناد للقوات المنهكة الموجودة في الجبهة الغربية .

هكذا فإن النبي لم يستطع شن محاولة الاختراق النهائية ضد الأتراك إلا بعد شهور طويلة من التوقيت الذي كان يعلق عليه الآمال .

تقدمت قوات فيصل بن الحسين بدورها من الأتراك .

ولكن القتال هنا كان في إطار أبعد ما يكون عن ذلك الذي تحدث عنه لورنس، مؤكداً ضرورة إلحاق الأضرار بمعدات العدو وليس إزهاق أرواح رجاله، ولم يكن يفصل بين المثالية الأولى المكلفة بالبراءة وبين نهر الدم الهادر هذا إلا عام ونصف العام .

لقد تقدم رجال الثورة العربية شمالاً، فإذا بهم يشاهدون مذابح وحشية راح ضحيتها سكان مضارب القبائل التي اشتبه الأتراك مجرد اشتباه في أن لها علاقة بالثورة العربية، دع جانباً أن تكون مشاركة فيها .

بالنسبة للكثيرين بدا غضب القادة العرب هادراً كالبركان، وللمرة الأولى في الحرب أصدر لورنس أمره بعدم أخذ أسرى من الأتراك والقتال بطريقة العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم .

ونلاحظ هنا أن لورنس اختصر جوهر ما قام بإنجازه في عبارة نادرة وردت في مقال بعنوان «تطور ثورة» نشر في مطبوعة «دورية الجيش» في أكتوبر 1920 حيث يقول: «من خلال الإصرار الدقيق الذي تم الإبقاء عليه في إطار قوتنا وبالتزام روح نظريتنا تمكنا بالفعل من الوصول بالأتراك إلى مرحلة العجز التام .

وبدا النصر الكامل في مطال نظرنا، عندما أبقى جنرال النبي بضربته الهائلة في فلسطين القوات الرئيسية للعدو في حالة من الفوضى العاجزة، ووضع نهاية فورية للحرب التركية، وقد سعدنا للغاية بوداع الأمانا .»

تحرير دمشق

عندما تم تحرير دمشق أتيح للورنس أن يكتب في الأول من أكتوبر 1918 لقيادة الأركان العامة قائلاً: انتقل الشريف ناصر مع ميجور سترلنج ومعني إلى دمشق، في الساعة التاسعة من صبيحة الأول من أكتوبر، وسط مشاهد من الحماس غير العادي من جانب السكان المحليين .

وكان من المستحيل المرور في الشوارع على وجه التقريب بفعل الحشود التي مضت تهتف حتى بحت أصواتها، وراحت ترقص وتلوح بالسيوف وتطلق الرصاص في الهواء، وتم الهتاف بأسماء ناصر ونوري شعلان وعودة أبو طابع وباسمي، وانهالت علينا أكاليل الزهور وأمطرنا بالقبلات بلا انتهاء ونثرت علينا الورود .»

لكن ذلك لم يكن إلا وجهاً واحداً من وجوه المدينة المحررة، ففي العديد من المناطق كانت الشوارع مليئة بالحطام وبالمعدات العسكرية المتناثرة وبآثار التخريب الذي سبق انسحاب الأتراك، وانتشر التيفوس والديسنتاريا والبلاجرا، وتم على وجه السرعة تنظيم فرق لتنظيف الطرق والشوارع وإعادة فتح المرافق وتشغيلها .

في غضون ذلك ارتفع علم الثورة العربية خفاقاً فوق مقر قيادة فيصل بن الحسين في المدينة المحررة، لكن الكاميرات ستسجله وهو ينطلق مغادراً فندق فيكتوريا، في الثالث من أكتوبر، بعد مقابلة مع النبي، كانت أبعد ما تكون عن إثارة مشاعر الرضا في نفسه .

لا بد لنا أيضاً من التوقف عند ملمح مهم، ولا يخلو من الدلالة، ففي اليوم الأول لوجود لورنس في دمشق حرص على تدبير أمر نهب إكليل الزهور البرونزي الذي كان القيصر الألماني فيلهلم الثاني قد وضعه على قبر الناصر صلاح الدين، خلال زيارته للمدينة قبل الحرب .

ويرى بعض المؤرخين أن هذه الخطوة من جانب لورنس ربما كانت إيماءة ضد الإمبراطور الألماني، وكذلك تعبيراً عن إعجاب لورنس بالخصم اللدود لصلاح الدين، وهو ريتشارد قلب الأسد، وفي وقت لاحق قدم لورنس الإكليل البرونزي إلى متحف الحرب الإمبراطوري البريطاني، مشيراً في شهادة تبرعه به إلى أن مبرر التبرع هو أن الإكليل: «قمت بانتزاعه لأن صلاح الدين لم يعد بحاجة إليه .»

أياً كان الأمر، فإن لورنس غادر دمشق في الثالث من أكتوبر 1918 بإذن خاص من النبي للعودة إلى إنجلترا. وقد يبدو هذا، لأول وهلة، بمثابة مغادرة سابقة للأوان للمسرح في لحظة الانتصار .

غير انه في وقت لاحق سيذهب إلى القول أن انتهاء الحملة بالنسبة له قد «كشفت عن استنزاف الينابيع الرئيسية للحركة بالنسبة له .»

وواقع الأمر انه قد بدا له انه بما أن من الواضح أن الحرب في كل مكان تقترب من نهايتها، فإن أفضل ساحة يمكنه عليها أن يتابع آماله وطموحاته ستكون دهاليز السلطة في أوروبا .

من المهم أن نلاحظ أن كتاب لورنس الكلاسيكي الشهير «أعمدة الحكمة السبعة» ينتهي عند هذا المنعطف من قصة لورنس، وصفحته الأخيرة مطبوعة بالحروف المائلة، لكي تشير ضمناً إلى نوع من الختام للصفحات السردية التي سبقتها .

وهذه الصفحة الأخيرة من الكتاب تتضمن العبارة التالية، التي لا تفتقر إلى البلاغة والتألق: «إن الدافع الأقوى طوال الوقت كان دافعاً شخصياً، لا يرد ذكره هناك، ولكنه مائل بالنسبة لي في كل ساعة من هذين العامين .

والآلام والمباهج النشطة قد تنهض عالياً، كالأبراج، وسط أيامي، ولكن هذا الدافع الشفاف كالهواء أعاد التشكل ليكون عنصراً ملمماً من عناصر الحياة حتى قرابة النهاية. وقد مات هذا الدافع قبل أن نصل دمشق .»

في أروقة السياسة

برهنت «الوظيفة الطريفة» التي تحدث عنها لورنس قبل عامين في معرض التوقع والانتظار، على أنها أكثر تعقيداً وإثارة للمتاعب، غير انه خلال الحرب كانت هناك مهمة موحدة، كاسحة، وكان هناك هدف له موقع جغرافي محدد يستقطب اهتمامه .

أما الآن، وقد عاد لورنس إلى لندن، فقد وجد نفسه يواجه موقفاً أكثر تعقيداً بكثير، ويواجهه وحيداً، حيث انطلق مسرعاً في أبهاء المواقع السياسية ودهاليزها في عاصمة الإمبراطورية، ليخوض المعارك عبر الموائد وليس في ساحة القتال. وكان الأعداء الذين يتعين أن يفوقهم دهاء هم من المدنيين والعسكريين، الذين يعتبرون رسمياً في صفه .

في 21 أكتوبر 1918 ظهر لورنس أمام اللجنة الشرقية التابعة لوزارة الحرب، والتي كان رئيسها هو لورد كيرزون النائب السابق للملك في الهند، والذي كان يشغل منصباً وزارياً رفيعاً في حكومة ديفيد لويد جورج .

سرعان ما علم لورنس أن اسمه بالفعل قد غدا معروفاً في الدوائر الحاكمة في لندن، فقد استهل لورد كيرزون مداولات اللجنة بقوله: «إنه وجميع أعضاء حكومة جلالة الملك قد تابعوا لبعض الوقت باهتمام وإعجاب العمل العظيم الذي كان كولونيل لورنس يقوم به في شبه الجزيرة العربية، وأحس بالفخر، لقيامه بالكثير من أجل المضي قدماً بالتقدم الناجح الذي أحرزته الجيوش البريطانية والعربية.»

عندما دُعي لورنس لطرح وجهات نظره أمام اللجنة، بادر بالقيام بذلك بمعرفة معمقة بموضوعه، فهو قد أراد أن يرى قادة الثورة العربية - الذين حددهم بأنهم فيصل وعبد الله وزيد أبناء الحسين والذين قاموا بدور متميز في الحملة في 1918 - وقد تم إعطاؤهم منطقتهم ليحكموها في إطار الشرق الأوسط .

أصغى أعضاء اللجنة لما يقوله لورنس، ودهشوا، فقد وصفت خطته على نحو ما طرحت في هذا الاجتماع وفي اجتماع آخر بعد عدة أيام، في مضابط الجلسات بأنها تمثل «وجهة النظر العربية القصوى»، أي نوعية الآراء التي كان حرياً بفيصل أن يطرحها لو أنه كان جالساً في المائدة نفسها، وقد أشار هذا التعقيب على وجهة الدقة إلى الحد الأدنى من المفهوم الذي تقبلته اللجنة .

إذا ضربنا صفحاً عن العناصر الأخرى، فإن توقيت الجهود التي بذلها لورنس لطرح القضية العربية لم يكن يمكن أن يكون أقل ملاءمة منه الآن، ففيما أفسح شهر أكتوبر 1918 المجال لشهر نوفمبر، انصب اهتمام إنجلترا بأسرها على الانتصار في أوروبا، وبصفة خاصة على وضع نهاية للحرب على الجبهة الغربية التي كانت قد قدمت مآسي لا نهاية لها، وسقطت فيها أعداد هائلة من الضحايا، ودفعت كل الجهات الأخرى إلى الهامش .

على الرغم من ذلك، فقد واصل لورنس جهوده، وتوضح وثيقة تحمل خاتم وزارة الحرب في الخامس من نوفمبر قيامه بمحاولة جديدة، حيث قدم اقتراحاً يحمل عنوان «إعادة بناء شبه الجزيرة العربية.»

في هذا الاقتراح يشيد لورنس بأبناء شريف مكة لدعمهم لقضية الحلفاء، مشيراً إلى «المحنة

المعنوية التي خاضت غمارها أقدم وأقوى العائلات العربية، وأكثرها قداسة لابتعادها عن الصداقات والارتباطات التي دامت عمراً، ولتحملها من أجل الحرية القومية، العداة الذي لا يسير له غور من جانب الهند وتركيا وأفغانستان ومصر.»

وشدّد لورنس على أن خطط زمن الحرب الداعية إلى تقسيم المنطقة بين بريطانيا وفرنسا ينبغي التخلي عنها، حيث إنها الآن ستكون مثار سخرية بسبب عبثيتها الجغرافية .

وحذر لورنس في عبارة ختامية حافلة بالمعاني من أنه إذا لم تتم تنمية هذه الخطط جانباً، «فإنني أمل على الأقل أن نعتزف بإدراجنا الرسمي للعرب، ضمن الأطراف المحاربة وجعلهم طرفاً في أي قرارات تؤثر على المنطقة العربية، التي انتزعوها هم أنفسهم انتزاعاً.»

في مؤتمر السلام

على هذا النحو، استقر المبدأ الذي سيكرس من أجله لورنس الكثير من جهده ووقته طوال السنوات الثلاث المقبلة. وقد كانت هناك بعض النجاحات في إطار هذا الجهد، فقد ساد الإجماع رسمياً على أن فيصل بن الحسين ينبغي أن تتم دعوته على رأس وفد عربي لحضور مؤتمر السلام، الذي تقرر عقده في يناير 1919، وتم الاتفاق على أن يضم هذا الوفد لورنس باعتباره مساعداً خامساً لفيصل .

هكذا أتيح للصوت العربي أن يعلو على الساحة الدولية، حيث أطل فيصل بزيه العربي المميز، وبمعبته لورنس في الزي الرسمي الكولونيل في الجيش البريطاني، ويقول لورنس مشيراً إلى الجهود الإعلامية المواكبة لهذا الحضور الرسمي :

«لقد التقيت مندوبي عشر صحف أميركية، ومنحتهم جميعاً مقابلات مطوّلة»، ويشير كذلك إلى لقاء الرئيس الأميركي ولسون وعدد من الشخصيات السياسية ذات الثقل الكبير .

من المحقق أن الوفد العربي قد ترك تأثيراً يعتد به، عندما أتيحت له في السادس من فبراير فرصة الدفاع عن قضيته أمام «مجلس العشرة» البارز المنبثق عن المؤتمر، حيث قام لورنس بترجمة ما قاله فيصل للمجلس، وأحدث تأثيراً يعتد به عندما طلب منه أن يكرر ما قاله فيصل بالفرنسية للمندوبين الذين لا يتقنون الإنجليزية إتقاناً تاماً .

وفيما لورنس يختتم ترجمته لما قال فيصل دوى التصفيق العفوي في القاعة. وكتب أحد المراقبين للمشهد يقول عنه: «لقد بدأوا الجلسة باعتبارهم المحكمين الواعيين بوضعهم في حالة البشر، وهام هم يهنونها كمشاهدين مفتونين بمتزجم لكلمة أحد رؤساء الوفود.»

كانت تلك لحظة رائعة، ولكنها لن تقطع أرساً ولن تبقي ظهراً في مجالس القوى الكبرى، وبالنسبة للورنس الذي لم يكن يتحدث باسمه فقط، وإنما باسم كل من تحملوا العبء الثقيل على امتداد أربع سنوات، لا شيء إلا ليجدوا الجنود يخلون الساحة للسياسيين في مرحلة ما بعد الحرب، كان هذا تجسيدا للطريقة التي تتخذ بها القرارات في المرحلة الجديدة .

وبصفة جوهرية فإن لورنس لم يكن يتحدث عن حربه فقط، وإنما عن «أعمدة الحكمة السبعة»، حيث يقول: «لقد عشنا أعماراً طويلة في تلك الحملات المدوية، ولم ندخر جهداً، ومع ذلك فحين أتممنا إنجازنا وبزغ عالم جديد، برز الكهول من جديد .

واستولوا على نصرنا، ليصيغوه على نسق العالم السابق الذي يعرفونه. لقد كان بمقدور الشباب الفوز، ولكنهم لم يتعلموا الاحتفاظ بما فازوا به، وكانوا ضعافاً على نحو مثير للإشفاق في مواجهة العصر، وددنا، إننا قد عملنا من أجل سماء جديدة وأرض جديدة، وشكرونا بلطف وصنعوا سلامهم.»

السير على هذا الدرب، بالنسبة للورنس، كان حتمياً فالارتباط الكبير بفيصل وبالمقاتلين العرب، الذين جاب معهم أرجاء الصحراء في مواجهات دامية مع الأتراك، وإدراك التضحيات الهائلة التي قدموها، كل ذلك ما كان يمكن إلا أن يدفعه لإتمام مسيرته.

ونعود هنا إلى الذاكرة، على الفور تقريباً، أصداء ذلك اللقاء الأول المبكر بين لورنس وفيصل في وادي الصفرة، في مستهل انطلاق لورنس في شبه الجزيرة العربية.

ومن قلب هذه الأصداء يبرز ما يقوله لورنس في «أعمدة الحكمة السبعة عن فيصل، حيث يبادر إلى الإقرار بأنه وجد فيه القائد الطبيعي الذي طالما تطلع إليه.

يقول لورنس في مقطع دال من كتابه عن فيصل: «أحسست عند النظرة الأولى أن هذا هو الرجل الذي جئت إلى شبه الجزيرة العربية ساعياً إليه، القائد الذي سيصل بالثورة العربية إلى تمام المجد.. بدا فيصل طويلاً للغاية، شبيهاً بعامود، ورشيقاً جداً، في أثوابه الحريرية البيضاء السابغة وغترته البنية وعقاله الذي يجمع بين اللونين الأرجواني والذهبي.

وقد خفف جفنيه وبدا محياه الشاحب وذقنه السوداء شبيهين بقناع حيال جسمه الغريب المفعم بمؤشرات المراقبة، وتقاطعت يداه أمامه على خنجره.

حبيته، فأفسح المجال أمامي لدخول الغرفة، وجلس على سجاده قرب الباب، ومع اعتياد عيني على الظل أدركت أن الغرفة الصغيرة تضم العديد من الأشخاص الصامتين، الذين يتطلعون إلي أو إلى فيصل بنظرة ثابتة.

وظل يحرق في يديه اللتين التفتنا على مهل حول خنجره. وأخيراً استفسر بصوت هادئ عن رحلتي، فتحدثت عن الحر، وسأل عن طول المسافة من رابع، معقياً بأنني انطلقت بسرعة كبيرة بالنسبة لهذا الموسم. وقال: هل أحببت مكاننا هنا في وادي الصفرة، فقلت:

حسناً، ولكنه بعيد عن دمشق. وقعت الكلمة وقع السيف وسطهم، سرت رجفة، ثم تجمد الجميع في مواضعهم، وكف عن التنفس للحظة صامتة. وربما كان البعض يحلم بنجاح بعيد، وربما ظن البعض أن هذه إيماءة للهزيمة الأخيرة التي منوا بها، ورفع فيصل عينيه أخيراً، وابتسم لي وقال: سبحان الله، هناك أتراك أقرب بالنسبة إلينا من ذلك.»

رياح المتاعب

إلى جوار هذه المتاعب العامة، هبت على حياة لورنس رياح المتاعب الخاصة أيضاً، فقد كانت له حياة منزلية ينبغي أن يعود إليها، ولكن دار العائلة في بولستد رود كانت قد فقدت اثنين من أبنائها في فرنسا، وستفقد ثالثاً بعد وقت قصير، حيث أحس والد لورنس في إبريل 1919 فجأة بأنه قد أصبح واحداً من ضحايا الأنفلونزا التي اجتاحت العالم آنذاك.

في هذه المرحلة أيضا تعرض لورنس لضغوط أخرى، حيث كان قد بدأ بالفعل كتابة صورته عن تجربته في زمن الحرب، وذلك خلال وجوده في باريس، وتحول الانتهاء من هذه الصورة إلى اهتمام، استحواذي لا يفارقه .

وتدخلت كلية كل الأرواح التابعة لجامعة اكسفورد لإنقاذه من الضغوط التي يتعرض لها، حيث عينته زميلاً، ومنحته السلام والأمن الأكاديميين لكي ينجز مهمته من دون إزعاج .

لكن لورنس كان في أعماقه يميل إلى رفض أن يكون جزءاً من أي مؤسسة أيا كان مدى تميزها، وهكذا وجد مكاناً أكثر عزلة في وستمنستر بلندن، أعاره إياه مهندس معماري صديق، هو سير هيرت بيكر .

غير أن صيف 1919 جلب معه ضغطاً من نوع آخر، عندما أذهل الصحافي الأميركي لويل توماس الذي كان لورنس قد التقاه في القدس ثم لاحقاً في الصحراء، بلندن بمحاضرة يصاحبها فيلم يحكي قصة لورنس ومغامراته في الصحراء .

كانت هذه المحاضرة أقرب إلى استعراض منها إلى أي شيء آخر، حيث ضمت عناصر الموسيقى والرقص بالإضافة إلى عرض فيلم سينمائي، وأريد بها الاحتفاء بجنرال اللنبي، لكنها سرعان ما تركزت على شخصية لورنس .

وقد افتتح هذا الاستعراض في كوفنت جاردن، ولكنه نقل لاحقاً إلى قاعة البرت الملكية، وبهذه الطريقة ولد «لورنس العرب» وعلى الرغم من أن هذا قد زاد شهرة لورنس إلى حد كبير إلا أنه حوله إلى شبه نجم سينمائي وأثقله بشهرة قارنها لورنس نفسه في وقت لاحق بعلبة صفيح مربوطة في ذيل قط .

من هنا لم يكن عجيبي أن يكتب لورنس في 20 مارس 1920 إلى ناشره الأميركي مستقبلاً ف.ن، دويلواي يقول في رسالة مطولة: «إنك تعرف أن من يدعى لويل توماس قد جعلني أقرب إلى معبود الحفلات الاستعراضية المبكرة .

ولذ فقد حجبت اسمي تماماً بقدر ما يتعلق الأمر بلندن وأنا أعيش في سلام مجهولاً، ولا يعرف عنواني إلا معارفي في أكسفورد، وليس مرد الأمر إلى أنني أكره أن أكون معروفاً، ولكنني لا أستطيع مواجهة ذلك، فما من أحد يتعرض لأن يكون ضحية لأناس حسني النية قدر المشاهير .»

وربما كان لورنس قد تصور أنه ستنتفح أمامه آفاق أخرى يودع من خلالها الشرق الأوسط وصلاته به، لكن ذلك كان أبعد ما يكون عن إمكانية التحقق كما سيكتشف ذلك سريعاً.

لورنس العرب ملامح حياة وأسرار أسطورة - الحلقة (4)

لورنس ينضم إلى «الأربعين حرامياً» في مؤتمر القاهرة

ن نحن على موعد مع لورنس هنا للقاء تحت أضواء مؤتمر القاهرة عام 1921، الذي لن يتردد، ونستون تشرشل، ضاحكاً، في إطلاق لقب «الأربعين حرامياً» على مساعديه في مداولاته، التي دارت حول إعادة رسم عدد من ملامح خارطة الشرق الأوسط التي لم تكن بريطانيا راضية عنها تماماً في صورتها التي خرجت بها من مؤتمر السلام في باريس .

وستتوالى محطات حياة لورنس الحافلة بالمفاجآت بعد محطة القاهرة، فالكولونيل المغامر سيلتحق بسلاح الطيران الملكي البريطاني في أصغر رتبة وسيبدأ حياة عجيبة تمضي به إلى كراتشي ومن ثم إلى حدود أفغانستان ليعود إلى بريطانيا ليعكف على إنتاج زوارق إنقاذ سريعة سيكون لها دور خطير في الحرب العالمية الثانية .

كان لورنس قد اعتقد أن صلته قد انتهت بالشرق الأوسط والعالم العربي إلى الأبد، لكن ونستون تشرشل عندما تقلد منصب وزير المستعمرات في 1921، عقد العزم على إعادة النظر في التسوية غير المنصفة التي فرضتها القوى المعنية من خلال مؤتمر السلام في باريس على المنطقة .

لهذا الغرض، على وجه الدقة، قام تشرشل باستدعاء لورنس لتقديم المساعدة في إطار الجهود التي سبّذل لتحقيق هذا الهدف . وبالطبع، لم يكن أمام لورنس من خيار إلا الموافقة والمسارعة إلى تقديم أقصى مساهمة يستطيع المبادرة بها .

هكذا وجد لورنس نفسه يعود إلى أماكن مألوفة له تماماً، ولكن هذه المرة ليس في الزي التقليدي لضباط الجيش الإنجليزي، وإنما في بدلة جيدة التفصيل وقبعة أنيقة .

من قلب المداولات والمفاوضات المكثفة التي أعقبت ذلك، خرج عبداً بن الحسين أميراً على مجمل الأراضي التي ستشكل المملكة الأردنية، بينما جرى تعويض فيصل، الذي كان قد أعلن نفسه ملكاً على سوريا، لكن الفرنسيين مضوا قدماً بخطته التي لم يكن جزءاً منها، بإعلانه ملكاً على العراق .

على الرغم من أن تشرشل لم يكن يتردد في أن يطلق على مستشاريه في مؤتمر القاهرة الذي عقد في مارس 1921 اللقب الضاحك «الأربعين حرامياً» في استلهم مباشر للقصة الشعبية الشهيرة، إلا أن ذلك لم يمنع لورنس من العودة إلى إنجلترا بعد انتهاء أعمال المؤتمر ولديه ما يكفي من الثقة لكي يؤكد «لقد خرجنا من مغامرتنا الشرقية الخاصة بزمن الحرب بأيادٍ نظيفة .»

لكن هل كانت الأمور كذلك حقاً ؟

إن من يتابع كتابات لورنس في هذه المرحلة بدقة ويحلها بموضوعية لا بد له أن يخلص إلى أن

الرجل كانت لديه، بالقطع، ظلال من الشك على الرغم من كل الجهود التي بُذلت .

المنعطف المذهل

في أغسطس 1922، أذهل لورنس أصدقاءه ومنتقديه على السواء بالإقدام على خطوة بدت لهم بالغة الغرابة ومستعصية على التفسير، حيث بادر إلى الالتحاق بصفوف سلاح الطيران الملكي في أكثر الرتب انخفاضاً وتحت اسم مستعار، هو جون هيوم روس .

أتاحت المشاق التي واجهها رجل أقل من لائق صحياً، وفي منتصف العمر، يواجه تحديات معسكر التدريب التابع لسلاح الطيران الملكي في أوكسبرج، للورنس مادة شائقة لكتابه الثاني الذي حمل عنوان «مصنع الرجال» .

والذي حفل بأحاديث عامية مستمدة من أرض التدريب وغرف الثكنات بحيث إنه لم يقدر له أن يطبع في صورته غير المنقمة إلا في سبعينات القرن العشرين .

كان جورج برنارد شو الكاتب الأكثر حدة في التعبير عن دهشته الغاضبة حيال خطوة لورنس هذه، وكان على صلة وثيقة بلورنس إلى حد أن هذا الأخير كان قد طلب منه قراءة الصياغة المبكرة لكتاب «أعمدة الحكمة السبعة» لإبداء رأيه فيه .

ولم يتردد شو في القول في معرض التعقيب على التحاق لورنس بسلاح الطيران في هذه الظروف: «إن الأميرال نلسون لو كان قد احتل عقله قليلاً بعد ضربه على رأسه في معركة النيل وعاد إلى الوطن مصراً على أن يوضع عند صندوق تحصيل الرسوم في سفينة تعبر قناة وعلى أن يعامل باعتباره فكرة كان من شأنه أن يجرج البحرية بصورة أقل مما تسبب فيه لورنس» .

وأعرب شو عن اعتقاده بأن الأمر كله «مسرحية تدعو للجنون»، ولكن الأمر بالنسبة للورنس كان عملاً ضرورياً من أعمال إذلال النفس، كان، «تنوياً للذهن» لرجل أثقلته سنوات عدة من الضغط والجهد المرتبطين بإحساس لا سبيل إلى الهرب منه بالذنب والفشل .

لا يتردد الكثيرون من الكتاب والمؤرخين في النظر إلى هذه الخطوة من جانب لورنس على أنها عرض متأخر ضمن أعراض عديدة أخرى سيفرزاها حادث درعاً .

ولكن ما هو التفسير الدقيق الذي يقدمه لورنس نفسه لما أقدم عليه؟ .

إنه لن يتردد في رسالة بعث بها إلى دي جي. هوجارث في القول: «ولماذا تطوعت؟ لما في ذلك من أمان أولاً، حيث يضمن وجود يدوم سبعة أعوام .

حيث لم يعد لدى أي ذهن كفيل بالمحاربة من أجل الإبقاء على نفسي، وكما تدرك فإنني قد انتهيت من مرحلة (لورنس)، ولست أحب ما تصنعه الشائعات منه، وهو ليس من نوعية الرجل الذي أرغب في أن أكونه . !

وقد أثارت الحياة السياسية شعوري بالإرهاق وذلك بدفعي للقلق أكثر مما ينبغي، فليس لدى ما يكفي من الطبيعة ذات النسيج الخشن لهذه الحياة، ولدى الكثير من الدقيق والضمير الذي لا يرضى بسهولة، وليس من الجيد أن ترى جانبيين للمسائل عندما يتعين عليك رسمياً أن تتبع جانباً

واحداً .

وداعاً للسياسة .. وعند ذلك تذهب بعيداً غالبية قيمة نقودي. وداعاً للورنس.. وعند ذلك تضيع معظم قدرتي على كسب العيش. ليست لدي مهنة أعمل بها، ولن يجدي الأمران أو الثلاثة مما أجد نفسي مؤهلاً له، ومن هنا فقد تم التدني بي إلى احتراف الجندية. إنني في الخامسة والثلاثين من عمري، كما ترى، وهذه سن أكثر تقدماً من أن تسمح ببداية جديدة في عمل بارع .»

هكذا أهدر لورنس الكثير من الجهد والوقت ولكن إلى أي حد يمكن أن يكون ما كتبه في هذا الصدد مقنعاً؟

إلى الهند

لم ينقض وقت طويل إلا وكان لورنس قد تحول إلى طريفة طبيعية مفضلة لدى الصحافة البريطانية، حيث مضى الصحفيون يطاردونهم، ليس في أوكسبردج وإنما في المقر الثاني لخدمته في سلاح الطيران الملكي، والذي تمثل في مدرسة التصوير الفوتوغرافي في فارنبره .

أدت الضجة الكبرى التي أثارها فلين ستريت إلى إخراجه من سلاح الطيران في غضون أيام قلائل، ولكنه شأن هارب يوغل في الركض لجأ إلى اسم مستعار آخر هو توماس إدوارد شو، وهو يذهب إلى القول إن اختياره لهذا الاسم لا صلة له ببرنارد شو، حيث عاود الظهور في مارس 1923 كمجدد في فيالق الدبابات التابعة للجيش وعلى وجه التحديد في مركز التدريب الخاص بهذه الفيالق في بوفنجنون بدورسيت .

كان هذا الوضع هو الأكثر تردياً الذي سيقدر له الوصول إليه في أي وقت، حيث انصبت الرسائل هادرة منه وبصفة خاصة على لا يونيل كوريتس في كلية كل الأرواح، الأمر الذي يشير إلى ذهن عند أقصى طاقات احتماله على وجه التقريب .

وفي حوالي ذلك الوقت كان قد انتظم على ما يعرف في سيرة حياته بالجلد المنتظم، حيث رتب ما يكفل إخضاعه لهذا العقاب البدني وحجبه سراً طوال ما بقي له من عمر لكنه صدم بشدة كل معارفه وأصدقائه عندما طفا إلى السطح بعد ثلاثين عاماً .

أهو عقاب على ذنب حقيقي أو متخيل؟ أهو استحضار لـ «فلكة» القرون الوسطى بطريقة أخرى؟ أهو تعبير عن نزوع نفسي معين؟ أهي استجابة تأخرت طويلاً على المعاناة والعذاب والمشاعر الغامضة في حادث درعا؟ .

إن الإجابات الصحيحة عن علامات الاستفهام هذه ربما قدر لها أن تظل محتجبة عنا إلى الأبد .

غير أن مؤلفنا العنيد، فالكولم براون يشير هنا إلى أن عاملين محددتين حالاً بين لورنس وبين الوقوع الكامل في قبضة الاكتئاب المرضي، وهما :

أولاً: ولعه المدهش بالدراجات النارية، حيث كان يختار أفضل الطرز وأكثرها شهرة واستقطاباً، وهو في ذلك الوقت طراز «برو سوبيريور» والذي كانت لديه منه سبع دراجات بخارية على الأقل .

ثانياً: اكتشاف كوخ صغير قرب المعسكر الذي يخدم به، والذي أصبح بمثابة الملاذ الذي يلجأ إليه طوال حياته، والذي سيعرف باسم «كلاودز هيل».

وكان بمثابة مكان مناسب للمحاولة الكبرى التي قام بها للفراغ من كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» الذي كان قد خطط لإصداره لا كمطبوعة موجهة للجمهور، وإنما كإصدار خاص، راقى التنفيذ، يحمل العديد من الصور، يظل في إطار طبعة محدودة قاصرة على المشتركين وحدهم.

لكن حياة الجيش لم تكن بديلاً لسلاح الطيران الذي كان لا يزال يتوق إليه، وهو لم يتردد في التلميح إلى الانتحار كوسيلة للضغط على السلطات للسماح له بإعادة التطوع في صفوف الطيران، وهكذا عاد إلى الزي الرسمي الذي أحبه وإلى موقع للخدمة في كرينول، تتيح له عزلة استكمال كتابه» مصنع الرجال».

سرعان ما وجد لورنس نفسه بحاجة إلى المال لتسديد الديون التي تراكمت عليه خلال إصدار «أعمدة الحكمة السبعة»، وهكذا واثته فكرة إصدار صيغة شعبية مختصرة من الكتاب تحت العنوان المثير «ثورة في الصحراء»، وقد وافق على أن يصدر الكتاب. مشيراً إلى أنه من تأليفه ولكن مع إبعاد نفسه عنه نسبياً بوضع اسمه كمؤلف بين شولتين.

ولكن لما كان من المحتم أن يثير الكتاب في صيغته تلك ضجة كبرى فقد طلب من سلاح الطيران مساعدته على «الاختفاء»، وهكذا أبحر في ديسمبر 1926 إلى الهند حيث سيقدر له البقاء هناك لمدة عامين.

لعنة الشهرة

كان الانطلاق في الطريق الطويل إلى الهند بالنسبة للورنس تراجعاً متعمداً ومقصوداً، ولكنه تحول إلى فترة مثمرة على نحو مميز، حتى وإن كانت في إطار نفي اختياري، وخلالها غير اسمه إلى توماس إدوارد شو.

وفي هذه المرحلة كذلك طرح فكرة العودة إلى لقب تشابمان الذي كان أبوه يحمله، وذلك في مراسلات مع المسؤول التنفيذي الرئيسي لمكتبة بودليان في أكسفورد، وذلك في إطار الحديث عن تصنيف النسخة من طبعة المشتركين في كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» التي كانت في طريقها للوصول إلى المكتبة، وتنبأ بأنه قد تكون هناك صعوبات في تصنيف الكتاب مستقبلاً.

«ذلك أن اسم لورنس ليس بالاسم الصحيح ولا الأصيل الذي سأستأنف حمله بالفعل، ولقد نشرت كتباً تحت اسم شو، وروس، ولورنس، وربما أنشر كتباً تحت اسم سي. فيالها من حياة»!

في غضون ذلك كتب لورنس مراجعات كتب تحت الاسم الأدبي كولف ديل، الذي اختصره إلى سي. دي، وهو الاسم الذي اشتقه من محطة كولنويل الأكثر قرباً إلى مطار هندن التابع لسلاح الطيران الملكي البريطاني.

ولما لم يكن لديه، في ذلك الوقت، كتاب يعتزم تأليفه في المستقبل القريب، فقد قبل تكليفاً بترجمة «الأوديسة»، وعلى القدر نفسه من الأهمية كان هذان العمان اللذان أمضاهما في شبه القارة الهندية وراء دفق هائل من الرسائل.

كانت الصداقة قد أصبحت ضرورة قصوى بالنسبة له على جميع المستويات، ولم يكن الإبقاء عليها في الهند البعيدة ممكناً إلا بالقلم وكان من بين من ربطتهم به مراسلات مطولة في تلك الفترة جون بوكان، إي. إم. فورستر، جورج برناردشو، وبصفة خاصة شارلوت زوجة هذا الأخير، التي كانت في ذلك الوقت وستظل حتى النهاية أقرب المقربين من لورنس .

وراسل لورنس كذلك إريك كينجتون ورئيسه في سلاح الطيران الملكي سير هيو ترنشارد. كما كتب مطولاً كذلك إلى صديقه في كرينول سرجنت بو الذي حرص على أن يسأل عنه وعن أفراد عائلته جميعاً. وإذا كان هناك رجل لا تعرف مراسلاته ترتيباً حسب المراتب الاجتماعية في هذه الفترة، فإن هذا الرجل لا يمكن أن يكون إلا لورنس .

هكذا تقرأ أجواء هذه المرحلة في رسالة بعث بها لورنس إلى صديقة لا يونيل كورتيس في 14 مايو 1923 يقول فيها: «إنني أستهلك اليوم، وكذلك نفسي، بالعكوف على التفكير والكتابة والقراءة ومعاودة التفكير من جديد، منطلقاً ركضاً في أفق ذهني عبر عشرين طريقاً مختلفاً في وقت واحد .

إنني أنام أقل من أي وقت سبق، ذلك أن هدوء الليل يفرض السكون عليّ، ولا أتناول إلا وجبة الإفطار فقط، وأرفض أي تشويش وأي تشغيل أو تريض. وعندما تصبح حالتني المزاجية أكثر احتراماً مما ينبغي وأجد نفسي أضرب ضائعاً متجاوزاً كل سيطرة، فإنني أخرج دراجتي النارية وأطلق بها بأقصى سرعة عبر هذه الطرق غير الممهدة ساعة وراء أخرى .

وقد توترت أعصابي ومضت إلى ما يقرب من الموت، بحيث أنه ما من شيء يقل عن ساعات من الخطر التطوعي ستعيد هذه الأعصاب إلى الحياة، والحياة التي تصل إليها عندئذ هي نشوة كئيبة حقاً .

عجيب حقاً هو هذا التوق إلى المخاطرة، لأنني في الجنازيوم أمقت القفز على الحصان أكثر من السمر، فهذا أمر عضوي، وذلك هو السر في مقنتي له، إنني أخجل من هذا الوثب وأخجل من عدم القيام به، ولست على استعداد للقيام به، والأكثر من ذلك أنني أحس بالخجل من القيام به بصورة جيدة .»

ولكي يقلل لورنس المخاطرة بالظهور العلني، فقد حرص على أن يحيا تحت ستائر التكتّم الشديد داخل المعسكر الذي أسند إليه العمل فيه في كراتشي «التي كانت آنذاك جزءاً من الهند»، مقتصرأً عن طواعية على التحرك داخل الثكنة وحدها .

في عام 1928 عهد إليه بالعمل في ميرانشاه، وهي منطقة نائية الحدود مع أفغانستان. وكان اكتشاف أن لورنس العرب يقبع قرب حدودها الجنوبية تحت اسم مستعار تقريراً صحافياً أكثر روعة بالنسبة لأي رئيس تحرير من أن يقاوم نشره، على الرغم من أن أبرز نشاط قام به لورنس في تلك الفترة كان ترجمة رائعة هوميروس، «الأوديسة .»

أشارت عناوين الصحف الصارخة إلى أن الجاسوس العالمي العقيد، هكذا كانت تلقبه الصحف الشعبية البريطانية، كان بسبيله إلى استئناف أداء حيله القديمة قاب قوسين أو أدنى من حدود أفغانستان .

شكل هذا، بالطبع، معضلة لسلاح الطيران الملكي، أحس قادته أنه لا سبيل إلى التعامل معها إلا

بإبعاد لورنس عن المنطقة بأسرع ما يمكن، وهكذا طرحوا عليه ثلاثة خيارات، فإما نقله إلى عدن، أو إلى الصومال، أو إلى الوطن، وقد اختار العودة إلى بريطانيا .

كانت حشود الصحفيين في انتظاره عندما وصلت السفينة التي نقله إلى بلايموث، وهكذا اضطرت السلطات المعنية إلى نقله سراً من السفينة قبل رسوها والانطلاق به إلى حيث يختفي عن العيون والكاميرات الفضولية .

رجل الزوارق السريعة

كان من شأن هذا كله أن يعرّض لورنس لحالة من الاضطراب وعدم الاستقرار، إلا أنه كان على وشك أن يعيش مرحلة لم يتردد في وصفها بأنها من أكثر مراحل حياته سعادة، فقد كان الضابط الذي أفلح في إبعاده عن حصار جموع الصحفيين هو قائد الجناح سيرني سميث، الذي كان قد التقاه لأول مرة خلال أنشطته في وزارة المستعمرات، والذي كان قائد قاعدة سلاح الطيران الملكي في كاتووتر .

عهد إلى لورنس بالعمل في هذه القاعدة التي تضم طائرة بحرية، والتي كان سميث يديرها بروح العائلة ويقوم فيها مع زوجته كليبر وابنته مورين، وسرعان ما أصبح لورنس واحداً من هذه العائلة الممتدة .

كان سيرني سميث معجباً بلورنس، وقد عامله معاملة الئد، ووقعت كليبر في غرامه في التو، وهذا غرام زاد تأججه رابطة الهيام بالموسيقى الكلاسيكية التي كانت تربطها بلورنس. ولم يطل الوقت قبل أن يجد لورنس نفسه ينطلق من رحلات منتظمة بالزورق مع كليبر، وهي أنشطة لم تصل، على الرغم من أي شكوك أحاطت بها، إلى ما يزيد على نزاهات أفلاطونية .

ساد مناخ من البراءة في هذا كله، فلورنس لم يكن له قط الكثير من الصديقات، وكان بطيئاً في فهم طبيعة عاطفة كليبر نحوه .

ولكن ربما كانت هناك عقبة أخرى من نوع مختلف تمثلت في أنه كان من رتبة أخرى في سلاح الطيران، ولم يكن مفهوم قيام علاقة حب بينه وبين زوجة قائد القاعدة التي يخدم بها مما لا يمكن أن يخطر على باله على الإطلاق .

ومن هنا فليس من الغريب أن لورنس سيفضي إلى ليدي أستور وهي صديقة مقربة أخرى في السنوات الأخيرة من عمره بقوله في لحظة شجن: «أرادت السيدة سميث.. مني شيئاً أريد الاحتفاظ به وكان ينبغي أن تفهم ذلك .»

وأضاف لورنس: هناك أناس لا سبيل إلى المساس بهم، والله الحمد، على الرغم من غاندي هذا العالم .»

أما كليبر سيرني سميث نفسها فإنها سيقدر لها أن تكتب مرثية جميلة للوقت الذي أمضياه معاً، وذلك تحت عنوان «العهد الذهبي». وتلفت نظرنا إلى براءة لورنس وبلاغته معاً أن هذا العنوان هو من صياغة لورنس، وليس من صياغة كليبر .

غير أن موقع عمل لورنس الجديد كان يضم ما يتجاوز هذه الأجواء الاجتماعية، فمنذ البداية

شارك في عمل أثار اهتمامه إلى أبعد الحدود، وشكل تحدياً بالنسبة له، فقد أشركه سميث في الاستعدادات الجارية لكأس شنايدر لسباق عام 1929 .

ولاحقاً في أعقاب كارثة تعرضت لها طائرة بحرية، حيث كان زورق البحث عن الناجين غير مناسب للمرة للتعامل مع الموقف، انهمك الاثنان في حملة جادة ومستمرة لإنتاج زوارق إنقاذ جوية - بحرية جديدة تتسم بالسرعة والقدرة على التعامل مع المواقف الطارئة .

وقد كتب هربرت ريد في مراجعة لطبعة 1928 من «أعمدة الحكمة السبعة» يقول عن لورنس إنه «كان رجلاً لديه حمل ثقيل يشغل ذهنه» وقد كان الاشتغال على الزوارق السريعة بدون شك عنصراً من عناصر تقليل هذا الثقل الجاثم على لورنس .

وهكذا فإن لورنس يبدو لنا في هذه المرحلة في «أوفرول» خشن بيدين يكسوهم الشحم على نحو يتناقض تمام التناقض مع صورته التقليدية المرسومة في أذهاننا بملابسه العربية على رحلة تسابق الريح .

ومما يكشف عما كان يدور بذهن لورنس في هذه المرحلة أنه كتب إلى أحد أصدقائه من الفنانين يقول ضاحكاً إنه عندما ينتهي من العمل في القاعدة، ولما كانت الكتب لا تعترضه كثيراً فإنه يميل إلى قراءة «هابي مجازين» أكثر مما يميل إلى قراءة أعمال أفلاطون، ويضيف: «وهكذا وصل إلى حل وسط هو عدم قراءة أي منهما، وبالتالي فإنني أصبح ميكانيكياً أفضل .»

وفي عبارة أخرى تتحدى النسيان، يقول لورنس في رسالة بعث بها إلى زميل له في وقت الحرب، والذي أصبح الآن لورد لويد: «بعد أن انشغلت في الثورة والسياسة، من الجميل للغاية أن أصبح نافعاً على الصعيد الميكانيكي .»

ينبغي أن يلفت نظرنا ما يشوب هذه العبارة الأخيرة من مشاعر، فهي قد كتبت في سبتمبر 1934 ، وهو الأمر الذي يعني أن وقت رحيله عن سلاح الجو الملكي يقترب مسرعاً، وكان قد قارن هذا السلاح ذات مرة بدير عادي، لكن هذا الدير كان يسرح رهبانه من الخدمة .

في 5 يناير 1935، ومن موقع خدمته الأخير في بريد لنجتون كتب إلى صديق له في كامبردج يقول: «إن صرامة سلاح الجو الملكي وروتينه كانا بمثابة مرساتين بالنسبة لي تربطاني بالحياة وبالدنيا، وأتمنى لو أنه لم يكن هناك اضطرار لقطعهما.»

لورنس العرب ملامح حياة وأسرار أسطورة - الحلقة (5)

مسيرة غامضة في «كلاودز هيل» نحو النهاية

ي يتابع القارئ هنا الخطوات الأخيرة في مسيرة لورنس، حيث شاء القدر للرجل الذي أمضى أكثر سنوات عمره تألقاً وسط دوي الرصاص والانفجارات أن يلقي حتفه في طريق ريفي ساكن لا يرتاده أحد، وكأنما كانت تلك هي السخرية الأخيرة في حياة نالت كفايتها ويزيد من سخریات القدر .

لكن سنوات المغيب هذه التي ستصل إلى نهايتها بغيبوبة يدخل فيها لورنس 6 أيام ثم لا يخرج منها إلا على عالم آخر، راحلاً عن عالمنا عن 46 عاماً، ستفتح المجال أمام كتاب السيرة والمؤرخين لنقاش يمتد طويلاً، ربما وصولاً إلى اليوم، حول جوهر ما خلفه لورنس للأجيال التالية والسر في أنه يتم تذكره الآن في إطار سياق الدم المتدفق في العديد من دول الشرق الأوسط، وإلى أي حد يمكن أن يصمد مفهومه عن تقليص ما أطلق عليه اسم «دائرة الأحران» .

كل من تابع باهتمام المرحلة الأخيرة من حياة توماس إدوارد لورنس لا بد أنه قد لاحظ أن سنوات الغسق تلك، التي سرعان ما تفضي إلى المغيب الكامل، تبعث إلينا برسائل غامضة، متداخلة، وملتبسة، إلى حد لا يتردد معها كتاب سيرة حياته في وصفها بأنها تستعصي على محاولات الفهم، دع جانباً محاولات التفسير والخروج برؤية كلية واضحة. فلنقرأ معا تلك الرسالة المدهشة التي بعث بها لورنس في 22 ديسمبر عام 1933 إلى عملاق الموسيقى سير إدوارد إجار من مقره العتيد في «كلاودز هيل»، وذلك قبيل رحيل عبقرى النغم عن عالمنا متأثراً بالسرطان في 23 فبراير 1934. يقول لورنس في رسالته: «أكتب إليك هذه الرسالة من كوشي، وقد عزفنا لتونا سيمفونيتك الثانية، كنا ثلاثة، بحار وجندي في فيالق الدبابات وأنا، وهكذا فإن الأسلحة الثلاثة كلها كانت موجودة، وقد أجمعنا على أنه لا بد من الكتابة لك وإبلاغك إذا كنت في حالة جيدة بما فيه الكفاية بحيث تكلف نفسك عناء الاهتمام، بأن هذه السيمفونية تمضي موعلة في أعماقنا أكثر من أي شيء آخر في مكتبة التسجيلات في كلاودز هيل .

إن لدينا كوتشتر الكمان أيضاً، وذلك يحدثك بالكثير، وبصفة عامة فإننا نعزف السيمفونية بعد كل شيء آخر، قرابة منتصف الليل، لأنه ما من شيء يبدو جيداً بعدها، ويبدو أن المرء يتوقف هناك. لسوف تضحك من كوشي، الذي يضم غرفة في الطابق العلوي تحتوي على جرامافون واسطوانات، وغرفة في الطابق الأرضي تضم كتباً، ولكن هناك كذلك حماماً، ونحن نرقد في أي مكان نشعر بالميل للرقاد فيه، ولذا فهو يناسبني، واعتقد أنه بيت لرجل واحد. «لأول وهلة، نلمح هنا حياة تبدو لنا مفعمة بالسعادة والمرح، ينطلق صاحبها بعيداً عن أجواء المعاناة والتمزق، ولكن هل الأمور كذلك حقاً؟ .

ربما قد لا يكون من المناسب أن نبادر للإجابة عن علامة الاستفهام هذه قبل أن نقرأ المقطع التالي من رسالة كتبها لورنس في 6 أغسطس 1934 إلى إريك كيننجتون يقول فيها: «من أكثر الأمور إيلاماً في الحياة الوصول إلى إدراك أن المرء ليس جيداً بما فيه الكفاية .

وربما كنت أفضل من البعض، من الكثيرين تقريباً، ولكنني لا أكثرث بالمقارنة بيني وبين غيري. هناك معيار قياسي في مكان ما، وهذا المعيار هو وحده المهم، ولست أستطيع العثور على هذا

المعيار ومن هنا يأتي هذا الضياع. دعنا نصل إلى قرارة الأمر. إنك لا تزال تمارس النحت، وأنا ما زلت أبني زوارق سلاح الطيران الملكي. وفي 11 مارس المقبل سيصل هذا العمق إلى نهايته.

وكلاودز هيل ينتظرني ولدي دخل يصل إلى جنبيين أسبوعياً. ولذا فإنني اعتزم هضم كل السرور الذي يمكنني الاستمتاع به، وإذا وجدت أن عدم القيام بشيء ليس أسوأ من الانشغال العبثي الراهن بفعل ما لا أهمية له، فسوف أوصل عدم القيام بشيء. ولكن إذا لم يكن عدم القيام بشيء جيداً، فسوف أنطلق مجدداً وأتبين إلى أين تمضي بي الأمور.

متاعب الغسق

في 26 فبراير 1935 انطلق لورنس مرتدياً زياً مدنياً إلى الجنوب من بريدلنجتون على دراجة هوائية قاصداً كوخه العتيق «كلاودز هيل»، ولكن على امتداد الأسابيع التالية وجد نفسه في صراع محزن من أجل ضمان الخصوصية التي كان يتوق إليها.

في غمار هذا الصراع وصل لورنس إلى حد التقدم بمناشدة على نحو مباشرة إلى رابطة الصحافة، بل والمضي بالدراجة الهوائية إلى شار تويل لحشد تأييد صديقه ونستون تشرشل له في صراعه مع الصحافيين الذين يطاردونه حيثما ذهب، غير أن تشرشل لم يستطع إلا أن يقدم له قدحا من الشاي وأن يعرب له عن تعاطفه، حيث كان تشرشل نفسه، في ذلك الحين، رجلاً يعيش في متاهة، بعيداً عن أي نفوذ أو تأثير حقيقي.

ولكي تكتمل الدائرة، فإن لورنس عندما عاد من هذه الرحلة المجهدة إلى كلاودز هيل وجد نفسه محاصراً بحشود من رجال الصحافة، وفي إحدى المناسبات وصلت الأمور إلى حد التضارب مع بعضهم باللكمات، الأمر الذي تركه في حالة بالغة من الغضب والاستياء.

وتزداد في هذه الأسابيع الأخيرة من حياة لورنس ظاهرة المعاني المتضاربة والغامضة والملتبسة الصادرة عن رسائله، فهو يقول إن سلاح الطيران الملكي ترك «فراغاً هائلاً لا سبيل إلى تجاوزه» وأنه: «كان هناك شيء مكسور في الأعمال وكثير استخدامه لتعبير «الحيرة الخالصة» في صدد وصف حالته المزاجية.

وهو يمضي في التعبير عن هذه الحالة المزاجية خطوة أبعد، حيث يقول: «أتصور أن أوراق الشجر لا بد أنها تحس بهذا الشعور بعد أن تكون قد سقطت من شجرتها وإلى أن تموت.»

وكتب يقول فيما يبدو أنها رسالته الأخيرة: «إنني أجلس في الوقت الحالي في كوشي وأعود نفسي على حياة خاوية.» ولكنه يضيف في الرسالة نفسها إنه يتطلع إلى الوقت الذي تنتهي فيه هذه «الرقية السحرية» وإلى أن «أبدأ في الانطلاق من جديد.»

ويبدو أن لورنس كان قد ضاق ذرعاً بالصحافيين الذين كانوا يطاردونهم ومعهم حشود من المصورين في كل مكان يذهب إليه وحتى خلال عكوفه على القراءة والاستماع إلى الموسيقى في كلاودز هيل.

لهذا فإننا نجده يكتب في احتجاج غاضب آخر إلى سي بي روبرتسون في وزارة الطيران في أوائل 1935 قائلاً: «اللجنة على الصحافة! أي خط أمل أن تتحاز إليه! إنني أمل، مثل نيرون، أن

يكون للصحافة عنق واحد وأن تضغط على هذا العنق .

أمل ..ما الذي آمله؟ أتمنى لو كنت ميتاً، فيما أعتقد. فنهايات الحياة العملية هذه هي أمور مؤلمة، ولم تكن لدى أي فكرة عما هو وراء تسريحي من الخدمة، بدخل لا يتجاوز خمسة وعشرين شلناً في الأسبوع وباختصار للشجاعة لا يمكنني من الحصول على وظيفة أخرى، لأن أولئك الصيادين سوف يصل إليهم الأمر، ويعمدون إلى مطاردتي. اللعنة عليهم، كما قلت، إن الطريقة الوحيدة لتجنب إيراد اسمي هي الانضمام إلى جموعهم، وقبل أن يحدث هذا فإنني أتمنى أن أراهم وقد تم غلبهم في زيت البرافين .»

نهاية أسطورة

نجح لورنس في إعادة استخراج ترخيص لدراجته النارية، التي كانت تناسبه أكثر من الدراجة الهوائية التي كان ينطلق بها في المنطقة الريفية التي يسكنها ويشير المؤرخون إلى انه ربما لم تكن السرعة الكبيرة بهذه الدراجة النارية هي التي أسفرت عن ذلك الحادث الذي وقع في 13 مايو 1935، فكفل أغرب النهايات لأعجب قصص الحياة في هذه المرحلة من تاريخ الإمبراطورية البريطانية .

كان لورنس قد انطلق بدراجته النارية من الكوخ الذي يقطنه إلى مكتب البريد في بوفنجتون كامب ليعت بطرد بريدي إلى صديق له في سلاح الطيران الملكي تعود معرفته به إلى أيام الخدمة في فرانبره، والذي كان من الزوار المداومين على القدوم إلى كلاودر هيل، وهو جوك تشيمبرز، ولكي يبعث ببرقية يدعو فيها صديقه الكاتب هنري وليامسون لتناول طعام الغداء في اليوم التالي .

وفي طريق عودته صعوداً للمرتفع المفضي إلى كلاودز هيل صادف صبيين على متن دراجتين هوائيتين، وبشكل ما، ربما بفعل فقدان التركيز، ارتطم بإحدى الدراجتين، فسقط أرضاً، حيث أصيب بجروح في الرأس، وظل في غيبوبة في المستشفى العسكري القريب امتدت ستة أيام، ولفظ أنفاسه الأخيرة وسط مشاعر الصدمة والحداد التي سادت بريطانيا في 19 مايو عن 46 عاماً .

شيعت الجنازة في مورتون، التي لا يفصلها إلا مرج فسيح عن كلاودز هيل، بعد ذلك بيومين. وكان هناك حشد من المشيعين يضم ونستون تشرشل وزوجته، لورد لويد، أيدي أستور، جنرال ويفل، اوجستوس جون وسيجفريد ساسون. وحمل النعش سير رونالد ستورز، كولونيل نيوكوم، إيريك كينجتون، العريف برادبوري من سلاح الطيران الملكي، آرثر راسل من فيالق الدبابات وبات نولز جان لورنس ومساعدته في كلاودز هيل .

كان أنولد، الأخ الأصغر للورنس، هو الوحيد من العائلة الذي شهد تشييع الجنازة، حيث كانت أمه وأخوه الأكبر في طريق عودتهما من الصين، ولسوف يقدمان مساهمتهما في التشييع في وقت لاحق عندما تم تكليف كينجتون بنحت شاهد لقبر لورنس. وقد كانت الإشارة الوحيدة إلى لورنس التي تم إبرازها على شاهد القبر هي إلى كونه «زميلاً لكلية كل الأرواح بجامعة أكسفورد» إلى جانب مقتطف من أنجيل يوحنا .

ويشير بعض كتاب سيرة لورنس إلى أنه ربما كان مما يفسر الإشارة إلى كون لورنس زميلاً بالكلية العتيبة في أكسفورد أنها توضح اعتزاز عائلة كانت قد جاءت إلى أكسفورد مغمورة في

الظلال، لم يسمع أحد بها، وبمقدورها الآن التباهي بأن أحد أبنائها قد أحرز أحد أبرز أشكال التكريم من الكلية العريقة .

أما فيما يتعلق بالمقتطف المنقوش على شاهد القبر فإن كتاب سيرة لورنس لا يترددون في الإشارة إلى أن الرجل لم يحسم قط المسألة المتعلقة بقناعاته الدينية، حيث ظل في المجال، كما في العديد من المجالات الأخرى، الرجل الذي يثير أسئلة تستعصي على الرد. ومع ذلك فقد كان هذا أيضاً هو الرجل الذي قال عنه جون بوتشان إنه يمكنه أن يتبعه إلى حافة العالم، والذي قالت عنه سيلاندين، زوجة إريك كيننجتون إنه: «يضيء الكثير من المواقف في الغرف الباردة .»

شهرة مدوية

«فيما يتعلق بالشهرة بعد الموت، فإنها شيء جدير بأن يبصق عليه المرء، فالعقول الوحيدة الجديرة بأن يكتسبها المرء هي العقول الدافئة المحيطة بنا، وإذا فقدنا هذه العقول فإننا نكون قد منينا بالفشل .»

هذه الكلمات كتبها لورنس في رسالة بعث بها إلى الناشر بيتر ديفيز في 25 فبراير 1935 قبل أقل من اثني عشر أسبوعاً من موته. مع ذلك فإن الشهرة المدوية بعد الموت كانت أمراً حتمياً في حالة لورنس، وقد ظل نطاقها يتسع منذ ذلك الحين .

في البداية كانت هناك مشاعر حزن جارف، ولم يكن ذلك في بريطانيا وحدها، حيث كان في ذلك الوقت قد أصبح شخصية معروفة على نطاق عالمي، وانتشر الشعور بالصدمة حيال موته على امتداد العالم .

ومن الذين كان حزنهم مؤثراً الشيخ حمودي الذي كان شخصية بارزة في العمل في كركميش والذي زار عائلة لورنس في أكسفورد عام 1913، حيث كتب ديفيد جارنيت عنه في صور مجموعة مقالاته بعنوان «الكتاب الأساسي عن تي. إي. لورنس» يقول إنه لدى إبلاغه بوفاة لورنس: «مضى حمودي جيئةً وذهاباً في قاعة في حلب معرباً عن حزنه قائلاً: آه، لو أنه لقي حتفه في معركة فحسب! لقد فقدت ابني، ولكنني لم أحزن عليه حزني على لورنس ..

إنني أعد من الشجعان، الأكثر شجاعة في قبيلتي، حيث كان فؤادي من حديد، ولكن فؤاده كان من فولاذ. إنه رجل كانت يده مبسوطة دائماً، قل لهم.. قل لهم في إنجلترا ما أقوله، لقد كان رجلاً في مجال الرجولة وحرراً في ميدان الحرية، وعتلاً بلا نظير، وليس بمقدوري أن أجد فيه شائبة .»

وسرعان ما بدأت عملية تخليد ذكرى لورنس. وفي 29 يناير 1936 أزيح الستار عن تمثال نصفي له من إبداع إيريك كيننجتون في كاتدرائية سانت بول بلندن .

وكان المتحدث الذي ألقى كلمة بهذه المناسبة واحداً من أبرز الشخصيات الإنجليزية في ذلك العصر، وهو لورد هاليفاكس، نائب الملك السابق على الهند ومستشار جامعة أكسفورد، والذي سيغدو وزيراً لخارجية بريطانيا وسفيراً لها لدى الولايات المتحدة، وكان قد عمل وكيلاً برلمانياً لوزارة المستعمرات عندما كان لورنس ملحقاً لها في عامي 1921 - 1922 .

وكانت الكلمة التي ألقاها لورد هاليفاكس حافلة بالإشادة بلورنس، حيث أشار إلى تلك النيران الملتهبة التي جعلته مختلفاً عن غيره من الرجال وإلى قوته التي تثير الدهول وإلى تملكه لناصرية

الحياة .

بل إن إحدى فقرات هذه الكلمة توشك أن تفسر لورنس باعتباره شخصية طالعة من أسطورة قديمة، حيث يقول لورد هاليفاكس: «ما أغرب حبه للأماكن العادية، من الزخرف في الأرض، والتي بدا أنها تعادل نقشف الحياة على نحو ما كان يظن أنها ينبغي أن تعاش، وهكذا فقد أحب الصحراء حيث الفضاءات الرحبة تتراعى إلى البعيد، ولما كان هو نفسه جواب آفاق، فقد وجد قرابة طبيعية تربطه بالشعوب جوابة الآفاق التي تعيش في الأرض التي وجد فيها وطناً ثانياً.»

وفي وقت لاحق نصبت نسخة من هذا التمثال في كلية اليسوع بجامعة أكسفورد، ولكن كيننجتون كان قد بدأ العمل في أبداع تمثال نحته للورنس، والذي يجسده راقداً بالملابس العربية، والذي سيوضع في كنيسة سانت مارتن في ورهام في 1939. وفي وقت لاحق، وعلى وجه التحديد في 1954، ستصب نسخة من هذا التمثال لتوضع في التيت جاليري بلندن .

في غضون ذلك بدأ احتفال بلورنس عبر دفع هائل من الإصدارات، وعلى الرغم من أن بعض من أتيحت لهم فرصة نسخ من «أعمدة الحكمة السبعة» في طبعة المشتركة أصروا على أن هذا العمل الفريد لا ينبغي أن يكون متاحاً للجمهور العريض، إلا أن الكتاب سرعان ما احتل مكانه على رفوف المكتبات وسط نجاح هائل، وسيقدر له أن يصبح ظاهرة في عالم النشر، فهو لن يخرج من دائرة النشر قط، وسيعاد إصداره في العديد من الأشكال وسيترجم إلى سبع عشرة لغة عالمية .

وسرعان ما أدرك أخوه أرنولد أن هذا الكتاب قد أطلق موجة من الاهتمام لا يمكن لكتاب واحد أن يحيط بها، ولذا بدأ في إعداد كتاب هائل يضم ذكريات الكثيرين عن لورنس، وقد نشر هذا الكتاب بالفعل في 1937 تحت عنوان «لورنس وأصدقائه». وكان عدد من أقرب المقربين من لورنس، ومن بينهم فيصل بن الحسين وهوجارت، قد رحلوا عن الدنيا، وعلى الرغم من ذلك فقد استجاب أكثر من ثمانين مساهماً لدعوته بالكتابة عن أخيه .

كان في مقدمة هؤلاء المساهمين بالكتابة ونستون تشرشل، برنارد شو، إي. إم. فورستر وروبرت جريفز، بالإضافة إلى زملاء للورنس من أيام المدرسة والجامعة ورفاق سلاح سابقين في سلاح الطيران الملكي وفيالق الدبابات وأدرج خطاب لورد هاليفاكس في كاتدرائية سانت بول باعتباره مقدمة الكتاب .

كان لورنس قد كتب في عام 1929 إلى صديق له في سلاح الجو الملكي يقول: «إنني أحاول أن أعود نفسي على الحقيقة القائلة إنني ربما سيجري الحديث عني طوال عمري، بل وبعد مماتي أيضاً، وسيصدر مجلد من الرسائل بعد موتي.»

وقد تحققت هذه النبوءة بصورة مضاعفة في عام 1938 عندما صدر مجلد يقع في تسعمئة صفحة بعنوان «رسائل تي. إي. لورنس» من إعداد ديفيد جارنيت، حيث قوبل بنجاح كبير فور صدوره .

وفي وقت لاحق، وعلى وجه التحديد في عام 1939 أصدرت مطبعة الجولدن كوكيريل، وهي في مقدمة الدور المتخصصة في إصدار الطبقات الفخمة في ذلك الوقت، طبعة محدودة من تقارير لورنس في زمن الحرب تحت عنوان «رسائل سرية من شبه الجزيرة العربية». ولما كانت هذه التقارير في ذلك الوقت لا تزال محظورة النشر قانوناً من جانب وزارة الخارجية البريطانية فإن من الواضح أن الأذن بنشرها قد صدر من دون احتجاج كبير من جانب الوزارة .

كيان من الأدب

لم يكن ذلك إلا البداية فحسب في ظهور كيان من الأدب بأسره حول لورنس، بما في ذلك العديد من الأعمال والكتب من مختلف الأنواع بالإضافة إلى المسرحيات والأفلام والمقالات والرسائل الجامعية فضلاً عن سير حياة عدة وكتب للأطفال، بل إن الأمر يصل إلى أن القائمة التي أعدها الباحث الأميركي المميز فيليب أوبريان بهذا كله يصل طولها إلى ضخامة كتاب جارنيت عن رسائل لورنس حيث يقع كتاب أوبريان في 894 صفحة .

صحيح أن الحرب العالمية الثانية أخرجت لورنس من دائرة اهتمام الرأي العام إلى حين، لكنه لم يتعرض للنسيان، فقد كان هناك جنرالات ينتمون إلى أمم عديدة يعرفون لورنس ويقدرون عمق بصيرته ورؤاه العسكرية، ومن بينهم القائد الألماني إروين روميل والجنرال الأميركي جورج باتون وكان تشرشل خلال توليه رئاسة وزراء بريطانيا حريصاً على العثور على قادة من عيار لورنس .

وقد وجد تشرشل ما يبحث عنه في أوردونجيت، الذي وصفه جون مارتين، السكرتير الخاص لتشرشل بأنه «شخص مثير للاهتمام، لا يختلف كثيراً عن فكري عن تي. إي لورنس .»

مساهمة لورنس في الحرب غير التقليدية تثير اهتمام الخبراء - الحلقة الأخيرة -

لورنس العرب ملامح حياة وأسرار أسطورة

ف في ختام هذا الكتاب يجد القارئ نفسه على موعد مع تقويم شامل لما بقي من تراث لورنس، ومع محاولة جدية لاستيعاب السر في أنه اليوم يتجدد الاهتمام به ليس من جانب القراء العاديين فحسب، وإنما في المقام الأول من جانب الخبراء والاختصاصيين في شؤون الشرق الأوسط وصراعاته .

ويبرز المؤلف مالكولم براون بصفة خاصة الجهود الكبيرة التي بذلها لورنس في فهم العقلية العربية، ويعرب عن اعتقاده بأن هذه الجهود هي التي تقف وراء الإقبال الهائل، الذي أبرزته صحيفة «التايمز» اللندنية على إعادة قراءة كتاب لورنس الكلاسيكي «أعمدة الحكمة السبعة» منذ عام 2004 .

وهو الكتاب الذي أصبح ضرورة بالنسبة للعديد من الكوادر العسكرية الأميركية، التي أبدت اهتماماً كبيراً بمفهوم لورنس عن «دائرة الأحران» وتشديده على آليات تقليص الخسائر البشرية في الصراعات الحربية .

فُدر لشهرة تي. إي. لورنس أن تشهد انعطافة نوعية في مسيرتها مع عرض فيلم «لورنس العرب» من إخراج ديفيد لين وبطولة بيتر أوتول، الذي لعب دور لورنس، وهو الفيلم الذي عُرض لأول مرة في عام 1962 وفاز بجائزة الأوسكار، ونقل مساهمة لورنس في الحرب إلى أرجاء الدنيا، فكفل ميلاد جيل جديد من محبي لورنس والمهتمين بكل ما يتعلق به .

كان الاهتمام الجماهيري الكبير بهذا العمل وراء ظهور موجة جديدة ومتواصلة من سير الحياة، التي يتحمس بعضها للورنس، ويحمل البعض الآخر عليه بشدة . وعلى الرغم من أن الفيلم لم يكن عملاً وثائقياً، إلا أن جانباً كبيراً منه أعاد تقديم المواقع الصحراوية الأصلية التي وقعت فيها الأحداث .

مع ذلك فإن الفيلم كان أقرب إلى أجواء هوليوود منه إلى دنيا التاريخ وعلى الرغم من أن بيتر أوتول قدم شخصية لورنس على نحو متائق، إلا أنه كان أطول منه قامة بقدم كامل على الأقل، ولم يتردد الكثير من أصدقاء لورنس في الإعراب عن استيائهم وغضبهم مما شاهدوه على الشاشة .

أيًا كان الأمر، فإن مالكولم براون يلفت نظرنا إلى جانب بالغ الأهمية، وهو أن الرجل، الشخص الأخير القابع وراء البريق والتألق، وراء المدح والقدح، هو الذي يثير اهتمامنا الآن، بينما الشخص الذي ينطلق على راحلته في الصحراء مسلماً أرديته للريح يحتل المرتبة الثانية بصورة متزايدة. إن لورنس الأقل استقطاباً للأضواء والأقرب إلى أرض الواقع والمنتمي إلى السنوات الأخيرة هو الذي يحظى باهتمام أكبر، حسب تأكيد المؤلف .

إنه لورنس الذي يشعر الكثير من الناس بتقارب شخصي معه، رجل يناضل في مواجهة الجوانب

الإيجابية والسلبية من شخصيته المعقدة، في مواجهة دوافعه وأفكاره وميوله، رجل يواجه السؤال الكبير حول ما الذي يتعين عليه القيام به حيال حياة عملية انتهت أعظم لحظاتها مسرعة، تاركة إياه مع ظلال لا يملك هروباً منها، طالما هو على قيد الحياة. هذا الرجل يكمن جانب كبير من تراثه ليس في منجزاته ونجاحاته، وإنما في إنسانيته وضعفه، في الطريقة التي يعالج بها مشكلة العيش، وبالطرق التي يعد بها، أو يبدو مثلنا، على نحو ما يعبر المؤلف مالكولم براون .

هناك لورنس آخر

يحرص المؤلف على التشديد على أن عالم اليوم المتغير هو الذي فرض تقويماً جديداً لجانب واحد، على الأقل، في سياق شهرة تي. إي لورنس باعتباره لورنس العرب، وهو جانب بارز على أي حال، من جوانب الحياة العملية لهذا الرجل، وهي الحياة التي تعد أقرب إلى الشهاب منها إلى أي شيء آخر .

كان لورنس شخصية صغيرة في الحرب التي أعطته الفرصة، حسب تعبيره الشهير «لكي يكتب مشيئته عبر السماء بالنجوم». أما الآن فقد أصبح لورنس شخصية كبرى في سياق الحروب غير التقليدية، الصراعات المناهضة للإرهاب كما يعبر الكثير من المراقبين، التي حلت محل الحرب الباردة باعتبارها التهديد الكبير للسلم والاستقرار في العالم .

في هذا المجال، وحيث لا نجد لشخصيات بارزة في الحرب العالمية الأولى، مثل فوخ، لوندورف، هندنبرج، هييج وبيرشنج ما نقوله، أو تساهم به، فإننا نجد أن ضابط الاتصال مع فيصل الذي لا تنقصه البلاغة ولا القدرة على الحركة الطليقة يبرز فجأة بحسبانه شخصية ذات أهمية كبيرة .

لقد بدأ المؤرخون والمعلقون في اقتطاف أقواله وآرائه باعتباره حجة في الموضوعات التي يناقشونها، وبحسبان أن لديه ما يقوله بشأن الحرب الجديدة التي تدور رحاها في الشرق الأوسط، والذي يعد الآن بوتقة عالمية على نحو يفوق ما كان عليه في أيام لورنس. هكذا فإن الرجل الذي لم يجد معدو «قاموس أكسفورد للمقتطفات الحديثة» ما ينقلونه عنه إلا ثلاثة مقاطع فحسب، يجري الآن اقتطاف أقواله مراراً وتكراراً، تماماً كما لو كان مؤلف كتاب بالغ الحداثة، استقطب الأضواء لتوه .

الجدل يتجدد

أطلقت صحيفة «التايمز» اللندنية ما أصبح دافعاً هائلاً من الجدل والنقاش ونشرت في مارس 2004 مقالاً بعنوان «دروس لورنس العرب حول حرب العراق»، وجعلت للمقال عنواناً فرعياً «هو حكمة لورنس العرب». أوردت الصحيفة اللندنية في هذا المقال مجموعة من أقوال لورنس التي تستحق الاهتمام والوقوف عندها طويلاً، ومنها :

*الجيش كالنباتات، ثابتة، عميقة الجذور، تتغذى من سوق طويلة تمتد إلى الرأس، أما رجال حرب العصابات فهم كالضباب .

*بالنسبة للأثر فإن الحرب على التمرد كانت مضطربة وبطيئة مثل أكل الحساء بالسكين .

*لكي تقود مقاتلي رجال حرب العصابات لا بد لك من أن تكون واحداً منهم، وقد علموني أنه ما

من رجل يمكن أن يكون قائدهم، إلا إذا أكل من طعام عامتهم، ولبس ملابسهم، وعاش معهم، ومع ذلك بدا أفضل في ذاته .

*قوة الأمل والخيال تجعل الرجال خطرين .

وذكرت «التايمز» أن هناك زيادة هائلة في مبيعات كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» وأوردت في مقال رئيسي أن الشيء القيم حقاً في منهاج لورنس هو تصميمه على فهم العقلية العربية، وأن عبقريته تكمن في المتاعب التي تحملها من أجل القيام بذلك. وقالت: «إن ضابطاً عسكرياً متجذراً في احترام لورنس للعادات العربية.. من شأنه أن ينجح إلى حد كبير في كسب القلوب والعقول مقارنة بضابط يتولى هذه المهمة من دون معرفة متخصصة.»

وفي الوقت نفسه تم تناول هذه القضية بعنفوان في الولايات المتحدة، حيث أصبح لورنس مؤلفاً من المحتم قراءة أعماله في الدوائر العسكرية وكذلك موضوعاً لنقاش جاد ومطول في الصحف الأميركية البارزة. هكذا فإن هناك عاملاً آخر يتعين أن يضاف إلى تراث لورنس، وكما يعبر براون فإن هذا الرجل الذي رحل عن عالمنا قبل ما يزيد على سبعين عاماً قد برهن على أنه لا تزال لديه القدرة على إدهاشنا، وفي مجالات كانت خبرته بها خبرة فائقة، فإن من المحتم أن لديه الكثير مما يبلغنا به، ويعلمنا إياه، وبالتالي فإن قصته لم تنته بعد .

حرب بلا معركة

من المؤسف حقا أن مؤلف كتابنا، مالكولم براون، يكتفي بالإشارة إلى أن تي. إي لورنس قد استغرق في دراسة الحرب إلى حد كبير، من دون التطرق بأي درجة من التفصيل إلى طبيعة هذه الدراسة ومصادرها وما ركز عليه لورنس وهو يقوم بإنجازها. ربما يعد هذا الجانب حقلاً لا يزال يتعين على باحث متخصص أن يقدم لنا فيه دراسة مفصلة، ولكن من الواضح في الإشارات المتفرقة الواردة في «أعمدة الحكمة السبعة» وفي تقارير لورنس الميدانية ورسائله إلى العديد من رفاق السلاح في هذه المرحلة أنه قد قرأ بنمغن الدراسات الشرقية عن الحرب، وفي مقدمتها كتاب صن تسو الشهير «فن الحرب.»

لهذا ليس عجباً أن يطالعنا تعبير «حرب بلا معركة» في كتابات لورنس، وهو التعبير الذي يلخص به مساهمته الرئيسية في ثقافة حرب العصر الذي عاش فيه. لقد كان ذلك العصر يرى في الحروب التي تتحول إلى أتون طاحن يلتهم أرواح مئات الألوف من البشر في صراع دموي على ساحات قتال غارقة في الوحل والدم وسحب البارود شيئاً طبيعياً ومألوفاً وعادياً، شيئاً لا يتردد البعض في وصفه بأنه من طبائع الأمور .

بالمقابل، فإن لورنس كان يضع في ذهنه دائماً خطة استراتيجية شاملة يكمن نجاحها في تجنب المواجهات الرئيسية، وبالتالي تجنب تكبد خسائر هائلة في الأرواح، وهو الأمر الذي كان لورنس يرى أنه غير ضروري بالمرّة، للفوز في الحروب وحسم نتائجها. لهذا على وجه الدقة سنرى لورنس يركّز على التفوق الذهني على العدد الذي يجعل قتل رجال العدو أمراً زائداً وغير ضروري .

من منظور لورنس فإنه ليست هناك حكمة في مواجهة عدد من نوعية الجيش التركي بقوته النارية التي لا يستهان بها، فالهجوم على جيش تقليدي مدرب بعناصر كالمقاتلين العرب في هجمات بالمواجهة كان من شأنه التحول إلى مذبحه تودي بأعداد هائلة من المهاجمين، أي كانت

شجاعتهم وبراعتهم في القتال .

لهذا على وجه الدقة لا يفاجئنا أن نقرأ ما كتبه لورنس في هذا الصدد: «إن موت جسر وسكة حديدية أو آلة أو مدفع أو شحنة تركية من المتفجرات أكثر إفادة لنا من موت تركي». هذا المفهوم النظري الذي قام لورنس بتأصيله تحت عنوان «دوائر الأحران» قوامه أن سقوط مقاتل في الميدان على نحو لا ضرورة له يولد دوائر من الأحران لا تفتأ تتسع بلا انتهاء .

ومن المحقق انه في الحرب لا يد من وقوع خسائر، وفي بعض الأحيان على نطاق كبير، ولكن الإصرار على تضيق نطاق دوائر الأحران هو وحده الذي يفتح المجال أمام الحياة والسلام في مرحلة ما بعد الحرب. ربما لهذا على وجه الدقة ركز لورنس على امتداد حملة العامين على عمليات استخدام المتفجرات في تدمير خط سكة حديد الحجاز، وسنجده يكتب كثيراً عن الأساليب التي استخدمها هو ورجاله ومنها الانفجار المعروف بـ «قنبلة الزنبق» .

وعن هذا الأسلوب في التفجير يقول لورنس: «إن مظهر مقطع من السكك الحديدية معالج بهذا الأسلوب هو مظهر بالغ الجمال، حيث تندفع القضبان عالياً بأشكال متنوعة مثلما براعم الزنبق». كان هذا الخط الحديدي يمتد من دمشق إلى المدينة بطول 800 ميل تقريباً، وعلى الرغم من انه كان يستخدم بصفة أساسية لنقل الحجاج إلى الأراضي المقدسة إلا انه كان أيضاً خط الإمداد بالمون والمقاتلين بالنسبة للأتراك الأمر الذي جعله هدفاً منتظماً للهجمات العربية طوال 1917 - 1918 .

غير أن الأمور لم تكن على مثل هذا القدر من اليسر والسهولة دوماً، الأمر الذي نجده منعكساً في موقفين يتبناهما لورنس في هذه المرحلة. يبرز الموقف الأول لدى لورنس بصفة خاصة عندما يكون قتل أعداد كبيرة من جنود العدو أمراً يتعذر تجنبه، وهكذا فإنه يكتب لصديق له في الجيش البريطاني حول هذا الموضوع على وجه الدقة قائلاً: «أمل أن يبدو هذا طريفاً على نحو ما هو بالفعل.. إنه الأداء الأقرب إلى عمل شخصيات من نوعية بوفالوبيل، والبدو هم أفضل من يقومون بإنجازه» .

مع ذلك فإن في اليوم السابق لكتابة هذه الرسالة مباشرة كان قد كتب إلى زميل في أكسفورد يقول: «لن أطيل أمد هذه اللعبة أكثر من، فالأعصاب تتوتر والحالة المزاجية يغمرها الاكتئاب، والمرء بحاجة إلى رصيد غير محدود من قوة الأعصاب والمزاج المتفائل. إن هذا القتل والمزيد من القتل للأتراك أمر فظيع». على الرغم من أن لورنس في هذين الموقفين يبدو رجلاً ناجحاً دائماً في المهام التي يتصدى للقيام بها، إلا أن هذا النجاح لم يكن مواكباً له على الدوام .

المثال الشهير في هذا الصدد هو المتعلق بجسر وادي اليرموك، وهو واحد من الجسور المهمة التي يمر بها القطار في الطريق من سوريا إلى فلسطين، وقد أخفق الهجوم الذي أعده لورنس بناء على أمر مباشر من الجنرال اللنبي لنسف هذا الجسر، عندما سقطت بندقية أحد رجاله لدى اقتراب فريق الهجوم من الجسر، فبادرت الحامية التركية إلى استقبال المهاجمين بوابل من الرصاص .

ووفقاً لرواية لورنس نفسه، فإن محاولة تعويض هذا الإخفاق هي التي دفعت به إلى درعا، حيث تعرض للمحنة التي بقيت ظلالها تفرض نفسها عليه طوال ما بقي له من عمر. وإذا أردنا الاقتراب بشكل أكبر من روح هذه المرحلة، فإن علينا أن نقرأ هذا المقتطف من رسالة بعث بها لورنس إلى عائلته في 14 نوفمبر 1917، حيث كتب يقول من مقره في قلعة الأزرق في

الصحراء الواقعة إلى الشرق من عمان، وهذا المكان الذي أمضى فيه الجانب الأكبر من نوفمبر 1917: «إننا في قلعة قديمة ذات أسقف حجرية وأبواب حجرية من النوع المستخدم في باشان. وقد بعد العهد بينها وبين الإصلاح، لكنها تتحسن في هذا المجال كل يوم، وسأبقى هنا بضعة أيام، لأمنح رفاقي قسطاً من الراحة، ثم انطلق في جولة أخرى، وقد كانت الجولة الأخيرة مخصصة للانتفاض على قطارين، انفجر أحدهما متحولاً إلى ركام متناثر، بينما تهاوى الثاني على حطام الأول.

ياله من لحظة واكبها النجاح! إذا رأيت كلمة مرفقة بالآلة الكاتبة تشير إلى مفرزة من الجيش الشمالي للشريف فيصل.. الخ، فتلك إشارة لي». ونلاحظ أن لورنس حرص في حملة العامين على القيام بغارات على خط السكة الحديد نفسه بأكثر مما حرص على الهجوم على القطارات، ومرد ذلك إلى رغبته في عدم تعريض مرافقيه لمخاطر لا ضرورة لها، فضلاً عن التطبيق المباشر لمفهومه عن تجنب إيقاع الخسائر الكبيرة التي لا ضرورة لها في صفوف العدو أيضاً.

لكننا نعرف أن الأمور لم تسر على هذا النحو، كما أراد لها لورنس، فقد اضطرت بصفة خاصة بعد المذابح التي أوقعتها الأتراك في صفوف المدنيين في مضارب العديد من القبائل العربية إلى إصدار الأمر بعدم أخذ أسرى من الأتراك وإلى اتباع قاعدة العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم.

ونتوقف أمام منعطف مهم في كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» يعني هذه الجوانب وتفكير لورنس الدائم فيها، حيث يقول: «الحكومات تنظر إلى الرجال إجمالاً فحسب، ولكن رجالنا بحكم كونهم قوات غير نظامية ليسوا تشكيلات، وإنما هم أفراد، وموت الفرد، شأن حصة تسقط في الماء، قد يحدث أثراً لا يدوم طويلاً، ولكن دوائر الأحزان تنتسج من هذا الموضع، وليس بمقدورنا احتمال الخسائر، وفي حالة قطع السكة الحديدية فإنها عادة ما تكون منطقة ممتدة تخلو من القضبان، وكلما زاد الخواء عظم النجاح التكتيكي.

وربما يمكننا تحويل ما درجنا عليه إلى قاعدة وتكريس العادة المتمثلة في عدم الاشتباك مع العدو، وقد كان خطنا هو أن ندمر موارد الجيش التركي وليس هذا الجيش نفسه». ثمة النقطة هنا ينبغي في إطارها تأمل المغزى الرمزي لبندقية أهديت لمتحف الحرب الإمبراطوري البريطاني.

هذه البندقية من طراز «لي انفيلد 3» العتيق، وهي بندقية لورنس حيث تحمل الحروف الأولى من اسمه وتاريخاً محدداً هو الرابع من ديسمبر 1916، وقد أعطاه إياها فيصل بن الحسين، الذي كان قد تلقاها هدية قبل الثورة العربية الكبرى من أنور باشا، وهذا الأخير حصل عليها كجزء من غنائم الأتراك من الحملة البريطانية الفاشلة في 1917، وقد أهدى لورنس هذه البندقية إلى الملك جورج الخامس ملك بريطانيا، الذي أهداها بدوره إلى المتحف البريطاني العتيق.

تساؤلات

على الرغم من الجهد البحثي والتوثيقي الكبير الذي بذله مؤلفنا مالكولم براون، ونجح في غماره في الإجابة عن العديد من الأسئلة التي ظلت معلقة بشأن محطات عدة في مسيرة حياة توماس ادوارد لورنس، فإن هذه الإجابة هي نفسها التي تفتح المجال أمام بروز مجموعات جديدة من التساؤلات وعلامات الاستفهام بشأن لورنس.

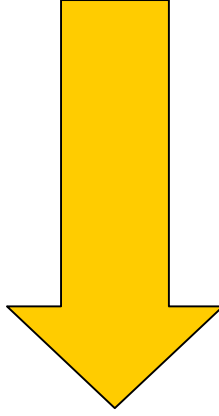
لقد أشرنا حالاً إلى أن جوانب شتى من رؤية لورنس للحروب غير التقليدية تحتاج إلى المزيد من

البحث وإلقاء الضوء عليها. ومن المحقق أن هذه الجوانب هي التي جعلت الكثير من العسكريين الأميركيين المعنيين بالتطورات في العراق يعودون إلى دراسة لورنس ومحاولة الوصول إلى مفاتيح نجاح حملة العاميين التي لعب دوراً مهماً فيها .

لكن ذلك وحده ليس الجدير بالاهتمام، فمن الواضح أن هذا المنعطف من تاريخ الحرب العالمية الأولى كتب إلى حد كبير من منظور الوثائق والكتب والدراسات والروايات البريطانية، بينما نظيرتها العربية لا تزال بعيدة تمام البعد عما تستحقه من بحث وتمحيص من دون أن يبدو في الأفق الحد الأدنى من البوادر الدالة على السير في هذا الاتجاه .

والموقف العربي من المشروع الصهيوني في هذه المرحلة جدير بالتوقف عنده أيضاً ودراسته، ومن المهم أن نعرف طبيعة الردود التي طرحها لورنس على تساؤلات القيادات العربية حيال وعد بلفور. وتبقى تساؤلات كثيرة في انتظار الإجابات، وربما كانت إثارتها هي في مقدمة حصاد كتاب مالكولم براون، وفي صدارة العناصر التي تؤكد أهميته .

مقالات أخرى عن لورنس العرب



لورنس العرب

اسمه الحقيقي توماس إدوارد لورانس ، شخصية أدبية وسياسية بريطانية. ولد في 15 سبتمبر 1888 وتوفي في 19 ماي 1935 ، ولد في تريمادوك من قرى ويلز ، وتخرج بجامعة أكسفورد. وسافر إلى سوريا وفلسطين بحجة دراسات أثرية ، وأقام مدة في جبيل بلبنان تعلم بها مبادئ اللغة العربية قبل سنة 1911. وأرسلته حكومته في بعثة إلى صحراء سيناء فكتب دليلاً لها لاستعمال الجنود. ونقل إلى مكتب المخابرات العسكرية في القاهرة. هذا الرجل من الشخصيات التي أبرزها الاستعمار وأحاطها بهالة ضخمة من البطولة : شخصية الضابط لورنس الذي وصف بأنه (ملك العرب غير المتوج) والمغامر الذي كشفت المؤلفات والأبحاث عن هويته الاستعمارية وولائه المزدوج لبريطانيا والصهيونية العالمية ، وكيف خدع العرب وعايشهم في خيامهم (إبان الحرب العالمية الأولى) على هدف واضح هو إسقاط الدولة العثمانية والإيقاع بين العرب والترك ودفع العرب إلى الاقتتال من أجل استيلاء فرنسا وبريطانيا على أراضي فلسطين وسوريا ولبنان.

وقد كشف عن هذه الخدعة التي قام بها في كتابة (أعمدة الحكمة السبعة) وفضح نفسه : حين قال لو قيض للحلفاء أن ينتصروا فإن وعود بريطانيا للعرب لن تكون سوى حبر على ورق ، ولو كنت رجلاً شريفاً وناصحاً أميناً لصارحتهم بذلك وسرحت جيوشهم وجنبتهم التضحية بأرواحهم في سبيل أناس لا يحفظون لهم إلا ولا ذمة ، وقوله : أما الشرف فقد فقدته يوم أكدت للعرب بأن بريطانيا ستحافظ على وعودهم ، وقوله : لقد جازفت بخديعة العرب لاعتقادي أن مساعدتهم ضرورية لانتصارنا القليل الثمن في الشرق ، ولا اعتقادي أن كسبنا للعرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار ، ومن ذلك قوله : إنني أكثر ما أكون فخرأ أن الدم الإنجليزي لم يسفك في المعارك التي خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوي في نظري موت إنجليزي واحد ، لقد جازفت بخديعة العرب لأنني كنت أرى أن كسبنا للحرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار.

وقد كشف كثير من الباحثين الأجانب والعرب حقيقة لورنس : ذلك الجاسوس البريطاني الذي جاء (عام 1911) قبل الحرب العالمية الأولى على هيئة عضو في بعثة أثرية تدرس القلاع الصليبية ، وفي جبيل تلقى دروساً في اللغة العربية في مدرسة تبشيرية ، وقد ادعى لورنس أنه جاء ليكشف الطريق التي سلكها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر بينما كان يعمل في الواقع على رسم الخرائط للمنطقة لاستعمالها في حالة الحرب ، فلما أعلنت الثورة العربية في الحجاز رافق فيصل بن الحسين عامين ونصف ، في أثناء ذلك سار الجيش العربي من ميناء جدة على البحر الأحمر حتى دخل دمشق منتصراً في 30 سبتمبر 1918.

ولقد خدع لورنس العرب وعمل على تحطيم قوى الجيش العثماني ونسف القطارات المحملة بالذخائر ، فلما انتهت المعركة وأعلن لورد اللنبي في القدس (الآن انتهت الحروب الصليبية) وأعلن غورو في دمشق قولته : ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين، عمد لورنس إلى أعظم سرقة حين سلب قبر صلاح الدين إكليلاً من الذهب كان قد قدمه له الإمبراطور غليوم يوم زيارته لدمشق.

ولما نجحت خطط الاستعمار البريطاني ، اتجه بجهوده لإنجاح خطط الصهيونية وأقنع فيصل بالاجتماع بويزمان زعيم اليهود.

لقد كان من أكبر أهداف لورنس وبريطانيا استبدال خليفة المسلمين في نظر مسلمي العالم بشريف من نسل الرسول حاكم الحرمين وحامى الكعبة.

وكان لورنس يؤمن أن الثورة العربية هي تقطيع أوصال الدولة العثمانية وإيقاع الخلاف بين العرب والترك وفتح الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين.

وقد أهدى لورنس كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) إلى سارة أرنسوهرن الجاسوسة اليهودية التي ألقى الأتراك القبض عليها في الناصرة أثناء الحرب في فلسطين فانتحرت حتى لا تبوح بسرّها.
هذا لورنس الذي كانت الصحف تكتب عنه وتصوره على أنه منقذ العرب وملك العرب غير المتوج والذي جعلوه صانع الثورة العربية وقائدها الفعلي.
وقد كشفت كتابات البريطانيين أنفسهم عن لورنس أنه لم يكن جاسوساً لبريطانيا والصهيونية فحسب ، ولكنه كان إلى ذلك إنساناً منحرفاً ، من الوجهة النفسية الاجتماعية والخلقية وأن تاريخ حياته يحمل صورة من الشذوذ الحسي غاية في الغرابة والعنف ، كذلك فقد كشفت كتابات المؤرخين خطأ ما ذهب إليه البعض من أن لورنس هو ملك العرب غير المتوج أو أنه كان مخلصاً للعرب ، وأن كتابه في الأعمدة السبعة كان مجموعة من الأكاذيب ، وهي صفحة اتهام له بالتبعية للاستعمار والصهيونية.



لورانس العرب هو جاسوس بريطاني.. تحدثت عنه كثير من الكتب، حتى بلغ عدد هذه الكتب أكثر من ثلاثين كتابًا.. وحتى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، حتى جعلته هذه الكتب أسطورة في عالم التجسس، ولكن الذين عرفوه وعاشوه في تلك الحقبة من الزمان؛ قد وصفوه بما يلي:

كان لورنس عميلًا للمخابرات البريطانية، يعمل ضمن خطة وضعتها تلك المخابرات لكي تفتت به العالم العربي..

ولد توماس إدوارد لورنس عام 1888، في بلاد الفال بإنجلترا، ولادة غير شرعية من أب أيرلندي الأصل، ويقال إن تلك الولادة غير الشرعية قد أثرت في تكوين شخصيته، وكانت حافزًا له للسعي والتفوق لمحو عار تلك الولادة. ومنذ صغره ظهرت عليه نزعة السيطرة والتفوق والقيادة والشجاعة، في لعبة السلم والحرب، كما بدت عليه سمات الذكاء الحاد والمخيلة الوثابة، والإحساس المرهف..

ومما أثر في لورنس صغيرًا كونه عاش في بيئة رجال لا يخفف من خشونتها سوى ما يضيفه عليه حنان الأم؛ حتى أشيع عنه أنه لا يرتاح إلى مجالس النساء. وأنهى لورانس شهادة الثانوية، والتحق بجامعة أكسفورد، قسم الآثار..

انتقلت عائلة لورنس إلى أكسفورد لتكون بجانب لورنس أثناء دراسته، وكان يعيش في هذا المكان الدكتور جيمس هوجارت؛ وهو الذي يشرف على متحف أكسفورد، باعتباره كاتبًا وعالمًا في الآثار، وهو في نفس الوقت كان يشغل منصبًا بارزًا في المخابرات البريطانية. وقد لاحظ هذا الرجل بما لديه من خبرة ودراية شغوف لورنس الصغير بالعلوم الأثرية، فاهتم به ورعاه علميًا ونفسيًا في شتى مراحل الدراسة، وكانت المخابرات البريطانية في هذا الوقت في أوج عظمتها وسلطاتها، وكانت تطل من وجه عالم آثار أو بائع خضار، أو حتى سائق تاكسي.

وكما كان لقاء المخابرات مع لورانس بغير موعد؛ كان لقاء لورانس مع العرب صدفة أيضًا، عن طريق كتاب اسمه "الصحراء العربية" بقلم شارل داني؛ حيث كان لورانس يطالع هذا الكتاب وهو طريح الفراش لكسر في رجله، وقد ألهم الكتاب مخيلته، وأيقظ في نفسه رغبة ملحة، تدعوه إلى تعلم اللغة العربية، والانطلاق إلى حياة البدو، وانطلاقًا من هذا الجو ومن هذه المشاعر العربية، نشأ حلم لورنس بالشرق الأوسط والصحراء منجذبًا بسحر خفي، لا يدرك سره، وشفي لورنس من كسر رجله، وغادر فراشه، وأصيب جهاز الغدد في جسده، فظل نموه متوقفًا ولم يبلغ الواحدة والعشرين من عمره...

وانتهى لورنس من هذه المرحلة الدراسية في حياته، وقرر إعداد دبلوم عن تأثير الصليبيين على فن النحت في الأجيال الوسطى، وشجعه الدكتور هوجارت عميل المخابرات

البريطانية، واقترح عليه السفر إلى الشرق لتحضير هذه الدبلوما، فسافر إلى بيروت عام 1909؛ ومنها إلى صيدا والجليل، ثم الناصرة والكرمل، وعكا، وكان يبحث وينقب عن الآثار التي تساعده على إتمام دبلومه، وعاد بعد ذلك إلى دمشق، وترافقه زوجته، وتعرف على البدو وحياتهم، وأحب حضارتهم المتحررة من أثقال المدنية، حتى وصل إلى قرية "أورفا" على الحدود التركية، ثم عاد إلى حلب، وأصيب هناك بالملاريا؛ مما اضطره للعودة إلى بيروت، ومنها سافر بحرًا إلى بريطانيا موطنه الأصلي..

وبعد تلك العودة قدم الدبلوما إلى السلطات الجامعية التي قامت بنسخ صورة منها، وسلمتها إلى إدارة المخابرات البريطانية لتضمها إلى ملفه رقم 3174/س، وبعد تلك الاستراحة عاد إلى العراق ملتحقًا بالبعثة البريطانية التي تقوم هناك بعمل بحوث عن آثار بابل، وهناك توثقت معرفته أكثر بالصحراء وأهلها، وعرف كيف يحيا الإنسان في الصحراء مع الله ومع نفسه، وهكذا أصبح لورنس يعرف الشرقيين، ويعرف عاداتهم، ويتعلم لغتهم؛ بل وأصبح يجيد اللهجة البدوية، وصار كأنه من أهل هذه البلاد، وقد أدت قدرته على التحمل إلى إعجاب البدو الزائد به، وكان لورنس يعد نفسه لعمل سياسي في البلاد العربية لم يسبقه إليه أحد..

عاد لورنس إلى لندن وقد تغيرت حياته، وأخذ يتحين الفرص للعمل الذي خطط له، وقد حالفه الحظ عندما أطلق شاب النار عام 1914 على الأرشيديون النمساوي قتلته؛ وبذلك بدأت الحرب العالمية الأولى، فعين لورنس برتبة ضابط احتياط في فرع الخرائط لدى القيادة العامة للقوات البريطانية، التي كانت تحتل القاهرة وقتها، وبعد ذلك بدأت تظهر حقيقة لورنس؛ حيث التحق بالعمل هناك، وتم نقل نشاطه إلى منظمة سرية أنشئت في القاهرة تحت اسم مستعار لتغطية نشاطها باسم المكتب العربي؛ وهذا المكتب عبارة عن فرع من فروع المخابرات البريطانية لممارسة النشاط التخريبي في مصر والأقطار العربية، وبعض البلدان التابعة للسلطة العثمانية في ذلك الوقت..

في 12 أكتوبر سنة 1916 توجه السير ستور البريطاني إلى السعودية، وكان اسمها الحجار أو الجزيرة العربية، يرافقه لورانس وبعض الضباط البريطانيين، وكانت تلك الرحلة تاريخية بالنسبة للورانس؛ إذ إنه بدأ معها ظهور أسطورة لورانس العرب، بل بدأت معها أكبر ملحمة عرفتها حياة إنسان، وهناك استطاع التسلسل إلى القبائل العربية التي كانت ثائرة على الاستعمار العثماني، وراغبة في التخلص من حكم الأتراك..

واستطاع لورنس أن يقنعهم بالثورة على العثمانيين، والتحالف مع القوات البريطانية مقابل التعهد لهم بإقامة دولة عربية واحدة مستقلة، وأصدرت السلطات البريطانية ما يثبت للقبائل العربية أنها تنفذ ما تعهد به لورانس باسمها، ولكن ما إن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى تنكرت بريطانيا لهذا الوعد، وجزأت البلاد العربية كما هو معروف..

وظهرت أذوبة لورانس، وأنه عميل يهدف إلى تفتيت وحدة العرب، وعدم السماح لها بتوحيد قواها الآن، وقام بعملية دسيسة أخرى؛ إذ إنه وعد شريف مكة باسم بريطانيا بأنها تضمن قيام دولة عربية تمتد من البحر الأحمر حتى الخليج العربي، وتشمل الجزيرة العربية بأسرها، بما فيها الساحل السوري الذي يضم سوريا ولبنان وفلسطين، وقام لورنس في حينه بتسليم شريف مكة رسائل موقعة من مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر، وهذه الرسائل تتعهد باسم الحكومة البريطانية بتنفيذ التعهدات المذكورة أعلاه، وسميت هذه الرسائل باسم مذكرات مكماهون، وقد خدع زعماء القبائل وشريف مكة وأعلنوا الثورة على الأتراك، وعندما هزمت تركيا بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى اتضح أن البريطانيين لم يخلوا بوعودهم للعرب فقط، بل إنهم عقدوا اتفاقًا سرّيًا مع فرنسا، وعرف هذا الاتفاق فيما بعد باسم معاهد سايكس بيكو، التي وقعها على الجانب البريطاني مارك سايكس، وجورج بيكون عن فرنسا، وبموجب هذه المعاهدة تعود سوريا ولبنان لفرنسا، وتعود العراق والأردن وفلسطين لبريطانيا..

بالإضافة إلى ذلك فقد سافر بلفور وزير خارجية بريطانيا إلى الولايات المتحدة في صيف 1917، راجيًا تدخلها في الحرب إلى جانب الحلفاء، ولكن الرئيس الأمريكي في حينه "ولسن"

وعد بلفور بالتدخل شرط تأمين وطن قومي لليهود في فلسطين، ووافقه على ذلك. ويقول لورانس عن ذلك:

إن أخبار هذه المعاهدات من وراء ظهري قد وصلت إلى العرب عن طريق تركيا، وطلب مني بعض الأصدقاء العرب أن أضمن لهم تعهدات بريطانيا التي أنتمي إليها، ولكنني لم أكن قد أبلغت رسمياً بتعهدات مكماهون، ولا بتعهدات سايكس بيكو لأن هذه المعاهدات وصفتها وزارة الخارجية البريطانية، ولكنني لست غيبياً إلى هذه الدرجة، فإني كنت أعرف أننا إذا كسبنا الحرب؛ فإن كل هذه التعهدات ستصبح حبراً على ورق، فلو كنت مستشاراً مخلصاً لكان علي تسريح رجالي من المقاتلين العرب، ولا أدعهم يعرضون حياتهم للخطر بسبب تعهدات مشبوهة، ولكن الحماس العربي معنا كان خير ورقة بيننا في حرب الشرق الأوسط من تركيا حليفة ألمانيا. وهكذا تأكدت وقلت لرفاقي في القتال إن إنجلترا ستكون عند حسن الظن بها، وستحترم تعهداتها. أما من وجهة لورنس العرب، فلم أكن فخوراً بما فعلت؛ لأنني لم أزل أحس بمرارة الخجل ومرارة الخيانة..

أما بريطانيا؛ فقد اعتبرت لورنس يقوم بخداع هؤلاء البدو من العرب لمصلحتها، فقامت بمنحه وسام الحرب، لكن لورنس عندما شعر بما يببئ للعرب؛ فقد رفض الوسام، فاعتبر الملك البريطاني أن هذا الرفض إهانة له، كما سبق أن رفض استلام معاشه من الجيش البريطاني ليظل حراً في تصرفاته...

وعندما ذهب الشريف فيصل إلى باريس للإعداد لمؤتمر السلم في قصر فرساي؛ رافقه لورنس ودعّمه بقوة..

وفي باريس حامت الشبهات حول لورانس، وكان نوري السعيد يحرض الملك فيصل عليه، وزادت الشبهات عندما نصح لورنس الملك فيصل بأن يعترف بقيام وطن قومي لليهود في فلسطين..

وهكذا كشف لورنس نفسه، ومن المعروف أن الملك فيصل لم ينل شيئاً من باريس، فعاد إلى دمشق، وقد عين ملكاً لسوريا، حتى اضطر إلى مغادرتها بعد معركة ميلسون المعروفة من 25 يونيو عام 1949.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى؛ انتهت مهمة لورنس تقريباً، وعاد إلى لندن يقضي هناك بقية أيام حياته، وانطوى على نفسه حتى لم يعد أحد يراه مطلقاً، فأخذت الإشاعات تنطلق هنا وهناك حول اختفائه، ومنهم من قال إنه أصيب بالجنون، ومنهم من قال إنه عاد إلى الصحراء العربية ليقضي هناك بقية عمره.

وفي منزل ريفي صغير تفرغ لورنس لكتابة مذكراته التي نشرها في كتاب بعنوان أعمدة الحكمة السبعة.. هذا الكتاب الذي أحدث أكبر ضجة أدبية وسياسية. وأخيراً.. مات لورانس بعد أن صدمته سيارة مسرعة.. مات لورانس.. ولكن القضية العربية لم تمت..